رؤية العالم وانعكاسها على الحضارات

أ.د. عبدالله محمد الأمين النعيم*

مقدمة:

إنّ كل حضارة وليدة فكرة أو عقيدة لها تصوراتها وتساؤلاتها عن الإنسان والإله والعالم والتفاعلات الناشئة عن علاقات الإنسان بما حوله ، وتلك التساؤلات والتصورات هي ما تشكّل رؤية كلية للعالم أو نموذج معرفي ، فإذا كانت الفكرة تتحكم في نشأة الحضارة ابتداءً فإنها تتحكم كذلك في تطورها وسيرورتها ... وعلى هذا الأساس فإنّ دراسة الحضارات لا تتم بمعزل عن حقيقة الوجود وغاية الحياة .

يناقش هذا البحث انعكاس رؤية العالم وإسقاطاتها في تفسير عملية النشؤ والتطور والسقوط للحضارات من خلال إبراز النموذجين المعرفيين ، الإسلامي والغربي وكذلك صدام أو حوار وتعارف الحضارات . وقد أثبتت الدراسة أهمية تعارف الحضارات كما صاغها القرآن الكريم من أجل العيش سوياً في فضاء التنوع والاختلاف ... تعارف يحترم التعدّدية والخيارات الحرة للناس بديلاً للجبرية والمركزية القهرية التي تحولت إلى عولمة انتفت معها خصوصيات البشر والأمم .

وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور:

1- التعريف برؤية العالم.

2- رؤية العالم وعوامل قيام وسقوط الحضارات.

3- رؤية العالم وتعارف الحضارات.

أولاً: رؤية العالم

يعد مفهوم رؤية العالم أحد المفاهيم الأساسية التي شاع استخدامها في أغلب البحوث والدراسات الأنثروبولوجية الثقافية ، ورؤية العالم هي (رؤية كونية تعبر عن روح شعب ما في مرحلة تاريخية معينة وتضم العقائد والأحكام المختلفة المتعلقة بالمشكلات أو التساؤلات النهائية التي تتصل بالإنسان ووجوده ومصيره وموقفه من الوجود ككل)[1] وهو بهذا المعنى صورة "Image" ورؤية معرفية ومبادئي متضمنة وافتراضات أساسية وروح ثقافة وتصُّور، والتَّصور هو الأساس الذي يقوم عليه البناء في كل عقيدة أو أي مذهب عقدي، وهذا التصور يعكس نظرة العقيدة أو المذهب للوجود كما يعكس النظرة العامة للحياة والإنسان والكون والمصير ، وتسمى هذه المكونات في الفلسفة بالأسئلة الكلية، أي التساؤلات عن الإله والإنسان والكون وعلاقة كلٍ منها بالآخر وعن المبدأ والمصير. وهو ما يكوِّن شبكة كليَّة ونظرة شاملة للوجود أو رؤية للعالم (world view).

---

* أستاذ الحضارة والفكر الإسلامي ، معهد إسلام المعرفة ، جامعة الجزيرة

[1] فؤاد السعيد : التحيزات المعرفية في الرؤية الغربية الحديثة للعالم ، بصائر المعرفة ، ع1 ، أغسطس 1999م ، القاهرة ، ص 12

1- رؤية العالم في النموذج الغربي:

عجزت الفلسفة الغربية في رؤيتها للعالم عن الإجابة عن التساؤلات الفلسفية النهائية المتعلقة بالإله والإنسان والحياة والمبدأ والمصير، وهي أسئلة عقدية لا تستطيع أية معرفة بشرية الإجابة عنها بصفة نهائية وإنما الذي يستطيع تقديم الأجوبة هو الوحي الإلهي وقد تم إبعاده من صياغة نظرية المعرفة الغربية،حيث أقيمت دعائم الوجود بعد عصر النهضة على أسس معرفية محورها إنسانية المعرفة والمذهب التجريبي أو المذهب المادي، وهذه القضية قد خلقت علاقة اعتمادية بين علم الوجود ونظرية المعرفة، وصار علم الوجود تابعاً لنظرية المعرفة بمعنى أنّ الوجود هو ما يمكن معرفته بالحس دون سواه وعلى هذا الأساس "تم اختزال مفهوم رؤية العالم ليقتصر على تكوين صورة للعالم المادي ومكوناته وهذا مما يجعله أقرب إلى مفهوم علم "Cosmology" ومكوناته وهذا يعني أن موقف الإنسان من الوجود هو السعي نحو معرفة ما هو ظاهر وملموس من الوجود"[2].

إنّ الافتراض الأساس في نموذج المعرفة الغربية الحديثة هو أنه يمكن الوصول إلى الحقيقة النهائية فقط من خلال المعرفة المتمحورة حول الإنسان ، ويتلاءم هذا الأمر مع الموقع الهامشي للوحي في العصر الحديث بالنسبة إلى كلٍ من العقل والتجربة وهي التي تتكامل مع الوحي لتحديد الحقيقة في المنظور الإسلامي. والمشكلة الأساسية التي تواجه نظرية المعرفة في الفلسفة الحديثة هي تلك المتعلقة بالتمايز المزدوج بين مصادر المعرفة المؤدية إلى تحديد الحقيقة وتجزئتها ، لأنّ هذا التمايز ما هو إلا ظاهرة مسيحية أوربية بحتة ، وعلمنة المعرفة كنتيجة تاريخية ومنطقية لهذا التحديد كانت دائماً أمراً مناظراً لعلم الكون المتمركز حول الطبيعة، فمذهب العقلانية والتجريبية أصبحا طريقين أساسيين لتحليل العلم الحديث، وهذا النموذج أرسيت دعائمه على افتراض أنّ أفكارنا مشتقة من مصدرين: الإحساس و العقل، فالأسس المعرفية لهذا النموذج هي إعادة تركيب وبناء المعرفة عقلياً وتجريبياً ويفترض في ذلك أنّ الإنسان ليس سوى كائن عاقل يعمل وفق مبادئ عقلية مسبقة عند التعامل مع أية معلومات معطاة أو معتقدات مكتسبة عن طريق الملاحظة لأجل بناء صرح المعرفة العلمية موضوعياً[3]. ويمكن تلخيص النموذج المعرفي الغربي في رؤيته للعالم في الآتي:

أولاً : إنّ النموذج الغربي الذي يعبر عن الرؤية الفلسفية الغربية عجز عن الإجابة على التساؤلات النهائية التي تتصل بالإنسان؛ وجوده ومصيره وموقفه من الوجود ككل ، على الرغم من أنّ هذا النموذج يقدُّم باعتباره النموذج العالمي الأرقى.

ثانياً : وكنموذج للخلل في مدارس هذا النموذج الفلسفي فإنّ المثالية أحالت الوجود الموضوعي للأشياء إلى مجرد أفكار وخواطر واستخفت بعالم الشهادة بينما ألغت الواقعية قيمة الفكر في مقابل الوجود الخارجي ، وجعلت الفكر مجرد انعكاس لذلك الوجود . يضاف إلى ذلك أنّ التمركز حول الذات أو الشخصية الإنسانية هو منطلق المثالية ، فالحقيقة النهائية ليست ذات طبيعة خارجية مادية أو واقعية وإنما هي ذات طبيعة نفسية أو روحية أو ذاتية.

---

[2] فؤاد السعيد : المرجع نفسه ، ص 3.

[3] أحمد أوغلو: النماذج المعرفية ، إسلامية المعرفة ، ع (22) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، أمريكا 2000م ، ص25-26.

ثالثاً : لقد برزت المدارس الفلسفية الغربية في وسط بيئي علمي لا يشجع على العلم والمعرفة نتيجة لاستحواذ المعرفة اللاهوتية الكنسية على المعرفة ونتيجة لهذا فقد كان توجُّه الفلسفة توجهاً علمانياً معادياً للدين ، فصارت قضايا الدين والغيب والأخلاق قضايا لا معنى لها لأنها غير قابلة للتحقق والاختبار التجريبي[4].

رابعاً: إنّ العلم يقدِّم نفسه في مناهج المعرفة المعاصرة كمنهج مبرأ من الإلهامات والحدس والذوق ، وأن هذه الأدوات ليست شيئاً وغير كافية للوصول إلى المعرفة. ولقد أحتج بعض العلماء على مناهج المعرفة المعاصرة " لا بد من طريقة جديدة للمعرفة . ولا بد من معنى أوسع للعلم ، فإنّ ملحد القرن التاسع عشر قد حرق البيت بدل أن يعيد ترميمه ، فلقد رمى بجميع الأسئلة التي طرحها الدين وبإجاباتها معاً ، وأدار ظهره لكل مقررات الدِّين لأنّ القائمين على الدين قد طلعوا عليه بإجابات لا يستطيع قبولها . ولكن اليوم وقد أصبح العالم أكثر معرفة واستنارة فإنه وإن كان لا يستطيع قبول الإجابات الدينية فقد أصبح واضحاً لديه أنّ موضوعات البحث الدينية ومباحث الدين والأسئلة التي يطرحها الدين حول النشأة والوجود والمصير هي قضايا علمية تستحق الاحترام الكامل ، وهي قضايا عميقة الجذور في الطبيعة البشرية ويمكن دراستها وتمحيصها بأسلوب علمي رصين. وأنّ الكنيسة كانت تحاول الإجابة على أسئلة رفيعة صحيحة . وهي وإن أخطأت الإجابة فإنّ الأسئلة نفسها كانت تستحق القبول الكامل والتبرير الكامل"[5].

خامساً : إنّ الحديث عن إدبار الفلسفة الغربية عن المعرفة اللاهوتية يعني ضمناً أنّ الوحي كمصدر معرفي لم يكن مقبولاً لدى المدارس الفلسفية الغربية مما جعل معرفتها تقتصر على عالم الشهادة أي – بمنظور القرآن – اقتصر علمهم على ظاهر الحياة الدنيا مغفلين الدار الآخرة . وباعتبار أنّ هذا العلم قاصر على الحياة الدنيا وباعتبار أن هذه الفلسفة عملت على تضخيم الذات العارفة بجعل الإنسان مركزاً للكون فإنّ هذا يعني أن العلم سعى ويسعى لتحقيق اللذة والمنفعة للإنسان أي إشباع غرائزه فظهر الخواء الروحي في العالم المعاصر وتعالت الصيحات المنذرة بالخطر[6].

سادساً : إنّ نظريات المعرفة الغربية وتحت وطأة " مبدأ الصراع بين الأضداد " والنظرة الأحادية الضيقة إلى الوجود

---

[4] راجع في طرح المذهب الوضعي المنطقي الرافض للغيبيات واعتراضات كارل بوبر " مبدأ التحقق ومبدأ التكذيب واعتراضات كواين ولا كتوس على التصور الوضعي المنطقي وبوبر:

زكريا بشير : نحو منهجية إسلامية للعلوم ، بحث منشور ضمن أعمال ندوة : نحو برنامج للبحث العلمي في إسلام العلوم ، معهد إسلام المعرفة ، مدني ، جامعة الجزيرة 1994م ، ص 55-67.

Popper, K.R,The logic of Scientific Discovery

[5] راجع : أبراهام ماسلو : خطر الانشقاق بين الدين والعلم ، ترجمة د. ماجد عرسان الكيلاني ، مجلة الأمة، قطر ، ربيع الأول 1401، ص 19 . وأيضاً كتاب فلسفة التربية الإسلامية لماجد عرسان ، ص 254 وما بعدها .

[6] راجع الدراسات الغربية التالية :

-Abraham Maslow ":Forward" in The Third force by Frank G.Globe,New York , poket Books 1970,P.X.
-Harry Schofeld : The Philosophy of Education , London, George Allen and Unwin , 1982, pp.61-63.
-Jonas E. Salk:The Survival of the Wisest , NeW York,Harper and Row publishers 1973, pp.IX-X-
-Theodore Roszak: Where the Wasteland Ends , New York , Doubleday and Co , INC,1972,PP. 152-164.

الإنساني قد فشلت في تقديم نظرية للمعرفة متكاملة ومتوازنة . وزاد من وطأتها إلى حدود بالغة النزوع دائماً القول " بمحورية الإنسان الفرد" ، فحرمت الإنسان من الاهتداء بالوحي الإلهي وأحالت الحياة إلى عبثية فتنامت على ساحتها مشكلات حياتية مزمنة لا يرجى منها برء كانهيار الأسرة وانتشار تجارة المخدرات والزواج من ذات الجنس والإجهاض القسري.وغير هذا من الأعراض التي صارت المجتمعات العلمانية تشكو منها[7] ... العلمانية الشاملة التي " جردت الطبيعة من سحرها وجمالها ، والسِّياسة من القداسة والأخلاق من الفضائل"[8].

2- رؤية العالم في النموذج الإسلامي:

حين الحديث عن النموذج المعرفي الإسلامي ورؤيته للعالم فإننا نجد أنّ نظرية المعرفة الإسلامية تختلف جوهرياً عن نظرية المعرفة الغربية ولها ارتباطات متداخلة تكوّن شبكة كلية ونظرة شاملة للوجود أو رؤية للعالم "World View" وهي تابعة لنظرية الوجود، ويمثِّل توحيد الإله محوراً لهذه النظرية، والتفكير الإسلامي عموماً يعتمد على الربط بين الوجود والمعرفة من خلال النبوة التي هي الطريق الوحيد للمعرفة الغيبية. ولذا فإنّ ما هو موجود لا يتعلق وجوده بمعرفة الإنسان له أو عدمها وذلك خلافاً للنظرية الغربية ومن هنا كانت تبعية نظرية المعرفة في الإسلام لنظرية الوجود[9]. والوجود في التصور الإسلامي قائم على عالمين:

- عالم الغيب وهذا مصدره الوحي ومجال العقل فيه محدود .

- عالم الشهادة وهذا يمكن فهمه عبر العقل. غير أنّ العقل لا بد له من الاستعانة بتوجيهات الوحي ، وإلاّ كانت النتيجة هي العلمانية، ذلك أنّ الكون "عالم الشهادة" في التصور الإسلامي مخلوق لله ، وخلق من أجل غاية ، وقد سخره الله لهذا الإنسان المخلوق المكرم ليعينه على تحقيق العبودية لله، وواجب الإنسان عمارة هذا الكون وعبادة الله. فإذا تعامل العقل مع الكون بعيداً عن هذه الغائية فإنّ النتيجة حتماً هي الإفساد بدلاً عن الإصلاح والإعمار. ومما لاشك فيه أنّ انغماس الفلسفة في دراسة جانب مع اطراح الجانب الآخر من شأنه توليد معرفة قاصرة، أما القرآن فإنّه يربط هذين العالمين بحيث لا ينفكان عن بعضهما وعلى ذلك فإنّ الحقيقة العلمية في النموذج الإسلامي ليست حكراً على التجربة، و الوجود الواقعي ليس حكراً على الوجود المادي أصلاً.

إنّ من أهم مميزات نظرية المعرفة الإسلامية هي وحدة الحقيقة وانسجام المعرفة فثمة علاقة اعتمادية بين الوجود والمعرفة، إذ إنّ نظرية المعرفة الإسلامية تابعة لنظرية الوجود ويمثِّل توحيد الإله محوراً لهذه النظرية كما ذكرنا، فنظرية المعرفة الإسلامية تنطلق – إذن- من مبدأ التوحيد وبهذا فإنّ نظرية المعرفة محدّدة وجودياً بحيث لا يمكن الخلط بين المعرفة الإنسانية والمعرفة الإلهية وذلك لوجود اختلافات جوهرية بين المعرفتين، فالمعرفة الحقيقية هي معرفة الله جل جلاله، وهذا يمنع حدوث صياغة عامة للمعرفة الإلهية والمعرفة الإنسانية الأمر الذي قد يكون المرحلة الأولى لعلمنة المعرفة ، فالتفكير

---

[7] راجع البحث القيم الذي كتبه د. عبد الوهاب الشيشاني بعنوان المعرفة بين الإسلامية والعلمانية ضمن بحوث " نحو برنامج للبحث العلمي في إسلام العلوم ، جامعة الجزيرة 1994م ، ص 68 وما بعدها لمعرفة أزمة إنسان الحضارة الغربية.

[8] AL-TTASS,S.N.,;Islam and Secularism,p.14

[9] عبدالله محمد الأمين وجمال عبد العزيز شريف ، مصادر المعرفة الإسلامية ، ط1 ، معهد إسلام المعرفة 2005، ص(41).

الإسلامي يعتمد على هذه الرابطة المحدودة بين الوجودية والمعرفية من خلال النبوة وإنّ ما تؤمن به القوانين الدينية في هذه المسألة هو إرادة الله والطريق الوحيد لمعرفة إرادة الله هو النبوة.

وثاني مميزات نظرية المعرفة الإسلامية هو الاختلاف في المستويات المعرفية بين عالم التنزيه وعالم الخلق فالله في النظرية الإسلامية هو أصل العلم والمعرفة وهو وحده العالم المطلق العلم، بينما علم الإنسان محدود ونسبي ؛ وهذا الاختلاف في المستويات المعرفية يسنده الإيمان بالغيب (**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**).(الأنعام :59) وهذا يمنع ظهور قاعدة علمانية محورها الإنسان[10]. وثالث المميزات تجانس المصادر المعرفية لإنجاز وحدة الحقيقة ، فالوحي مصدر للحقيقة المطلقة والعقل وسيلة لتفسير الوحي. وكامتداد للوحدة الوجودية فإنّ احتمال التناقض الكامل بين الوحي والعقل الخالص قد أنكرتها المدارس الإسلامية التي تؤكِّد على أنّ وحدة الحقيقة تنبع من وحدة الألوهية المطلقة ، فالعلاقة على هذا تكاملية لا تنافسية بين الوحي والعقل الخالص. هذه المميزات الثلاث لها ارتباطات متداخلة تكوّن شبكة كلية ونظرة شاملة للوجود أو رؤية للعالم "Worldview"

وتلخيصاً للنموذج المعرفي الإسلامي في رؤيته للعالم يمكن القول :

- إنّ التصور الإسلامي يعكس تمايزاً بين عالم التنزيه "الألوهية" وعالم الخلق "الكون وموجوداته" وهذا ما لم تنتبه له الفلسفات الغربية حيث لا يوجد هذا التمايز ومن ثمّ فقد حدث الخلل الذي أدى لأزمة الحضارة الغربية . ووجود هذا التمايز وفهم المسلمين الأوائل له هو الذي أدّى إلى سيادة الحضارة الإسلامية لقرون طويلة على العالم شرقيه وغربيه، بل ساهمت في بروز عصر النهضة الأوربية من خلال نزعتها التجريبية، وهي نزعة كرّسها مفهوم عمارة الكون.
- حقيقة التوحيد في بنيتها الشمولية ممثلة لجوهر العقيدة هي التي رسمت المسار الذي يجرى عليه البناء الحضاري كله. وقد أجاب القرآن الكريم في تقريره لأصول الإيمان على التساؤلات الكلية حول المبدأ والمصير، والعلاقة بين الخالق والمخلوق وهى الأسئلة التي خاضت فيها الفلسفة دون أن تصل إلى النتائج المطلوبة ذلك لأنّ الفلسفة قد استندت إلى العقل في بحوثها الميتافزيقية دون وضع اعتبار للتفرقة بين عالمي الغيب والشهادة.. فالعقل في التصور القرآني قاصر عن الوصول إلى نتائج تزول معها الشكوك في البحوث الماورائية فهو ليس عقلاً ذا مدى وجودي ومعرفي[11].

ويقدم النموذج التوحيدي رؤية شاملة وسمات هذا النموذج كما اتضحت هي :

1- الوحدة الوجودية الكونية المفارقة ويعتمد هذا التصور على هرمية وجودية واضحة مبنية على الوحدة الوجودية والمفارقة بين الله والكون مقابل الحلول الوجودي الغربي .

2- الوحدة المعرفية والتناسق المعرفي (تبعية المعرفي للوجودي بما يعني أن الوجودي يحدد المعرفي)[12] .

ومهما يكن من أمر فإنّ مواضع الخلاف الأساسية بين الفكرين الغربي والإسلامي في صياغة نظرية المعرفة التي

---

[10] أحمد أوغلو : النماذج المعرفية الإسلامية والغربية ، ص19-20.

[11] أبو يعرب المرزوقي: مفهوم السببية عند الغزالي ، ط1، دار بو سلامة للطباعة والنشر ، تونس 1978م ، ص (221)

[12] أحمد داؤد أوغلو : أثر رؤية العالم الإسلامية والغربية على النظرية السياسية ، بصائر المعرفة ، ص 23 – 24..

تولدت عنها رؤية العالم تتلخص في[13]:

أولاً : إنّ النظرية المعرفية في الفكر الغربي الحديث قد حدَّدت الإطار العام لنظريات الوجود ، فجاءت الثانية صدى ورجعاً لمحددات نظرية المعرفة بأصولها المادية والطبيعية والحسية والقول بالنسبية ، فأوجد هذا ظاهرة الاعتماد المتبادل بين الانطلوجيا "نظرية الوجود" والابستمولوجيا "نظرية المعرفة" في التقليد الفلسفي الغربي العام ، خلافاً للفكر الإسلامي الذي ولدت النظرية المعرفية فيه من رحم عقيدة التوحيد الخالص والتي حدَّدت بدورها معالم النظرة الكلية للوجود العام والخاص معاً .

ثانياً: إنّ النظريات العامة عن الوجود في الفكر الغربي ترتد في أصولها الأولى والمنشئة لها إلى التراث اليوناني – الروماني الغارق في الوثنية والتعددية ولقد نتج عن هذا التصور نزعات فلسفية مثل المادية والطبيعية والارتيابية الشكية والنسبية الأخلاقية وهي تيارات فكرية تجد لها أنصاراً وأتباعاً في الاتجاهات العامة للفلسفة الغربية الحديثة مثل النزعات التجريبية الخالصة عند جون لوك والتطورية الوضعية عند أوجست كونت والذرائعية عند وليم جيمس.

ثالثاً : إنّ هذه النزعات في مجملها كانت وليدة القول بمحورية الإنسان الفرد الصمد "Anthropocentrism" وهي النزعة التي دشنتها في الفكر اليوناني القديم السفسطائية فانحسر جرّاء ذلك المسافة الفاصلة بين الخالق والمخلوق . وجاءت عقيدة الحلول المسيحية تكريساً لهذا الأمر . وانفرج المجال واسعاً أمام النزعات العلمانية والإلحادية بسبب غياب التفرقة الواضحة بين عالم التنزيه وعالم الخلق.

رابعاً : وتولَّد عن غياب التفرقة بين التنزية وعالم الخلق غياب الفصل وحدود التمايز بين المرجعيات الكبرى النهائية للمعرفة من حيث مصدرها ووسيلة اكتسابها وطرائق التحقق من صدقها ، فتعدَّدت تلك المرجعيات وعلى وجه التقابل والتخالف بين العقل والحس والوحي والتقاليد المتوارثة . وأنّ هذه المرجعيات ليست تكاملية وتساندية يعضد بعضها بعضاً . فاعتماد واحدة منها مصدراً للمعرفة ينسخ شرعية المراجع الأخرى.

هذه هي رؤية العالم كما بلورتها النظريات المعرفية والتي قام عليها البناء الحضاري كله بدءً من المفاهيم وبناء النظريات وانتهاءً بالسيرورة الحضارية وفيما يلي عرض لعوامل قيام وسقوط الحضارات وتفاعل الحضارات كما بلورتها الرؤية الكلية للعالم.

ثانياً: عوامل قيام وسقوط الحضارات :

إنّ محور حركة الإنسان في هذا الكون يدور في إطار قانون الابتلاء ، فقد خلق الله الإنسان لعبادته وفضّله على العالمين وسخّر له موجودات هذا الكون لتعينه على أداء رسالته وأوجب على الإنسان ارتفاق هذا الكون وعمارته ونهاه عن الإفساد فيه فقـــال : (**وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**).(سورة الأعراف ، آيه 85)

ومما لا شك فيه أنّ التحضُّر يعتبر مظهراً للسلوك الجماعي ، فالحضارة – إذن – ظاهرة إنسانية إرادية ولذلك فإنّ قيامها يكون رهين عوامل تدخل في أغلبها ضمن نطاق الإرادة الإنسانية على سبيل التحصيل والكسب ؛ كما أنّ عوامل

---

[13] أنظر ورقة الدكتور أحمد داوود أوغلو الموسومة ب: النموذج الغربي : نظرية المعرفة من النزعة التجزيئية إلى الحقيقة وعلمنة المعرفة

سقوطها أيضاً تدخل في نطاق الكسب الإرادي للإنسان في أغلبها ، وبهذا المعنى تدخل ظاهرة التحضُّر الإنساني ضمن دائرة محكومة بقانون الأسباب ، ولكنها أسباب إرادية وليست حتمية ؛ فإذا شاء الإنسان أن يتحضر فإنه يتحضَّر وإذا شاء أن ينحدر فإنّه ينحدر تلك مسؤوليته التكليفية في نطاق القدر الإلهي العام الذي يدور فيه الوجود كله[14]. وعلى هذا الأساس فإنّ الدارس لعوامل قيام وسقوط الأمم والحضارات يلحظ أنّها تكمن في صميم الموقف البشري نفسه لا في الطبيعة أو العلاقات المادية ، إنما في إطار الإرادة الإنسانية وهذا يجئ بطبيعة الحال امتداداً لنظرية الإسلام الأساسية في استخلاف الإنسان في الأرض لأداء دوره الحضاري فيها ، وما دام هذا الإنسان اختار برفضه لتعاليم الله التي وعد بها آدم عليه السلام وذريته لاستكمال مهمتهم الأرضية الطريق المعكوس فمعنى هذا أن يقف على النقيض من دوره المرسوم[15].

إنّ دراسة عوامل قيام وسقوط الحضارات لا تتم بمعزل عن تصور الجماعة العلمية لحقيقة الوجود وغاية الحياة أي من خلال رؤيتها للعالم ، غير أنه نتيجة لمركزية الغرب وهيمنته على العالم فقد صارت المصطلحات التي ينظر من خلالها إلى التاريخ وتقوّم من خلالها جهود الأمم مصطلحات غربية مشحونة بمدلولات غربية تنبثق عن الرؤية الخاصة للفكر الغربي وهذا ما يبدو واضحاً في للمفاهيم الحضارية كالتقدّم والتخلف والرقي والتأخر ، ونحاول دراسة عوامل القيام والسقوط الحضاري على النحو التالي :

1- الرؤية الإسلامية لعوامل قيام وسقوط الحضارات.

2- الرؤية الغربية لعوامل قيام وسقوط الحضارات .

1-2 الرؤية الغربية لعوامل قيام وسقوط الحضارات:

1-1-2 قيام الحضارات في الرؤية الغربية

حصرت النظريات الغربية نفسها وهي تفسَّر نشؤ الحضارات في عاملين يعودان للطبيعة والإنسان ، ولا يمكن فهم انغلاق هذه النظريات على هذين البعدين ، الإنسان والطبيعة إلا بفهم الظروف والبيئة التي نشأت فيها تلك النظريات وهي – أي النظريات - التي شكَّلت التصوّر عن الحياة والكون والوجود ككل حيث أنّ النظرة للوجود انبثقت من نظرية المعرفة في الفكر الغربي ، ومن المعروف أن النظريات العامة عن الوجود في الفكر الغربي ترتد في أصولها الأولى والمنشئة لها إلى التراث اليوناني – الروماني الغارق في الوثنية والتعدّدية ، ولقد نتج عن هذا التصور نزعات فلسفية مثل المادية والطبيعية ، وهذه النزعات في مجملها كانت وليدة القول بمحورية الإنسان الفرد الصمد. ولقد كان من نتائج انحصار الفلسفة الغربية في دراسة الواقع المحسوس أو عالم الشهادة تمركزها حول الذات الإنسانية والطبيعة[16] فلا غرو أن يُعتبر الجنس أو العرق هو العامل الأساس في إنشاء الحضارة وأن يكون الجنس الأبيض هو منشئ الحضارة لما يتمتع به من

---

[14] عبد المجيد النجار : الشهود الحضاري للأمة الإسلامية ، المبادئ والعوامل والمشاريع ، مسودة مطبوعة على الكمبيوتر ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي " ب ت"، ص 36.

[15] عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص 305.

[16] أنظر : عبد الله محمد الأمين وجمال الشريف : مصادر المعرفة الإسلامية ، جامعة السودان المفتوحة ، الوحدة الأولى والثانية .

خواص حدّدها واضعو النظريات. وأن تدخل الطبيعة هي الأخرى كعامل في إنشاء الحضارة وأن ينشأ صراع بين الإنسان والطبيعة لتتفجر طاقات ذلك الإنسان الفرد الصمد[17].

إنّ كل حضـارة تصـطبغ في منهجها كله ، وفي إنتاجها جميعه بلون الفكرة التي منها نشـؤوها وتطورها حتى أنه ليتكون من ذلك في كل حضارة فقه خاص بها يتمثل في منطق داخلي تتكون عليه بنيتها وتتحكم به سيرورتها انفعالاً بالفكرة التي نشـأت منها ويتمايز ذلك المنطق بين حضـارة وأخرى ، ومعروف لدى فلاسـفة التاريخ والحضـارة أنّ الحضـارة التي تتمخض عن عقيدة ما، يرتبط مصـيرها إلى حد كبير بدوافع نشـوئها ، فإذا ضـعف الدافع العقدي أو عانت المعطيات الحضارية من تقطعه وغيابه بهذه النسبة أو تلك فقدت قدرتها على النمو والاستمرار ، وتفككت الأواصر التي تشد أجزاءها وتحركها صـوب هدفها المرسـوم[18]. فإذا أمعنا النظر في العوامل التي أنشـأت الحضـارة الغربية أمكننا اسـتخلاص النقاط التالية:

أولاً : تمّ استبعاد البعد الغيبي في عوامل قيام الحضارة الغربية فتعاملت الحضارة مع عالم الشهادة واقتصر علمها وقوانينها وتمثلاتها للوجود على المفاهيم الوضـعية القائمة على الصـراع ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإنّ النظريات الغربية عملت على تضخيم دور الإنسان بجعله مركزاً وإلهاً للكون، كما عملت الفلسفية الواقعية على تضخيم دور الطبيعة فألّهتها هي الأخرى. وهذا يعني أنّ الحضـارة الغربية سـعت وتسـعى لتحقيق اللّذة والمنفعة للإنسـان أي إشـباع غرائزه مع إهمال الجانب الروحي فظهر تبعاً لذلك الخواء الروحي في العالم المعاصـر وتعالت الصـيحات المنذرة بالخطر.

ثانياً : إنّ مقياس التفوق الحضـاري لا يكمن في حجم الإنتاج الكمي بقدر ما يكمن في أخلاقية الجماعة المتحضّـرة وسـعيها لخدمة الأهداف الإنسانية الشاملة ، وهذا ما لم تنتبه له الحضارة الغربية ، إذ إنّها تتجاوز -حتى على مستوى الفكر والفلسفة-حدود الموضـوعية الشـاملة وتهبط كثيراً عن أخلاقية الإنسـان بما هو إنسـان فتحصـر أهدافها ومعطياتها في نطاق دولة أو عرق معيّن كما هو الحال عند هيجل أو طبقة معيَّنة كما هو عند ماركس ورفاقه أو على أحسـن حال في إطار وحدة حضارية معيّنة كما هو الحال عند توينبي[19].

---

[17] لخص الغربيون نظرياتهم في نشؤ الحضارات في نظرية البيئة والعرق والنظرية المادية ونظرية مورفولوجيا الحضارة ونظرية التحدى والاستجابة راجع في ذلك :

- عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص 77.
- وول ديورانت : قصة الحضاره ج1 ، ترجمة زكي نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة جامعة الدول العربية القاهرة.1949م ، ص 4.
- محمد ضيف الله البطاينة : الحضارة الإسلامية ، ط 1 ، دار الفرقان ، الأردن 2002، ص 14.
-منح الخوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، ط1، دار العلم للملايين ، بيروت 1960م، ص 23-24.
- عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، ترجمة كاظم الجوادي، الدار الكويتية للطباعة والنشر، ص 90-91.
- فردريك انجلز : التفسير الاشتراكي للتاريخ ، ترجمة راشد البراوي ، ط 2 ، دار النهضة العربية ، 1968م، ص 199 – 120.
- Oswald Spengler : The Decline of the West , translatted by Charles F.,Athinson, New York 1946.

[18] عماد الدين خليل : حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية ، مجلة التجديد ، العدد (8) ، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، أغسطس 2000م ، ص 17.

[19] عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص 290.

ثالثاً : وحيث إنّ الحضـــارة الغربية تتعامل مع المحســوس فقد اســتحكمت فيها قيم المنفعة واللّذة ومن ثمّ فإنّ حركتها قائمة على فلسفة الصراع ذلك أنّ فكرة البحث عن عدو كامنة في فلسفتها.

رابعاً : إنّ انفصـال الحضـارة عن الدَّين وتحرُّرها من سـلطانه أفضـى ويفضـي بها ولا بد إلى انحلال الأخلاق وانحطاطها عاجلاً أو آجلاً ، وقد اسـتحالت الحياة في الغرب – نتيجة لإبعاد الدين – إلى عبثية فتنامت على سـاحتها مشـكلات لا يرجى منها برء كانهيار الأســرة وانتشـــار المخدرات والزواج من ذات الجنس وغيرها من الأعراض التي صارت تشكو منها المجتمعات الغربية.

خامساً : ولأنّ الحضارة الغربية أهملت الدين وتعاملت مع المحسوس وفقاً لمنهج المعرفة التجريبية فقد تعاملت مع الإنسان بما فيه من مشـــاعر بوصـــفه مادة ومن ثمّ فقد انعكس ذلك على الواقع الإنســـاني ، يقول كاريل "إنّ الحضـــارة العصـــرية تجد نفســـها في موقف صـــعب ، لأنها لا تلائمنا ، لقد أنشـــئت دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية إذ أنهّا تولّدت من خيالات الاكتشـــافات العلمية وشـــهوات النّاس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرّغم من أنّها أنشـئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صـالحة بالنسـبة لحجمنا وشـكلنـــــا[20]. أما كولن ولسـن فإنه يقول :"وكنت أنظر لحضـــارتنا نظرتي إلى شـــئ رخيص تافه باعتبار أنها تمثّل انحطاط جميع المقاييس العقلية ... انعدام الجانب الرُّوحي في حضارتنا الماديـة[21].

سادساً : لا مخرج للحضـارة الغربية من الانهيار والتدهور الذي بدأت تستعظم أخطاره في نظر البرت شفيتسر إلا بإيجاد نظرية كونية تسيَّر حركتها[22]..

2-1-2 عوامل سقوط الحضارات في الرؤية الغربية:

تجمع معظم مذاهب التفسير الوضعي على القول بحتمية سقوط الحضارات فماركس يخضع حركة التاريخ بدولها وحضاراتها وتجاربها لحتمية تبدل وسائل الإنتاج وانعكاسه على الظروف ويرى أن كل وضع تاريخي مآله الزوال بمجرد هذا التبدل الديناميكي "الحركي" الدائم ، لكن ما يلبث ماركس أن يقع في تناقض أساس مع نظريته عندما يقرَّر الدوام والثبات لمرحلة حكم الطبقة العاملة حيث لا زوال بعدها . أما شبنجلر وتوينبي فيؤكدان حتمية السقوط كأمر لا مفر منه [23] ، غير أنّ توينبي يقع هو الآخر في تناقض حينما يؤكَّد بأن هناك أملاً في بقاء الحضارة الغربية المعاصرة بوجه الأعاصير حيث أنه نظر إلى بقية الاشعاعات اللاهوتية الكامنة فيها فقرّر أزليتها وذلك لأنّ كل مادة وكل وقود يتحول إلى إشعاع[24].

---

[20] ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة فريد أسعد شفيق ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ص 28 . وراجع سيد قطب: الإسلام ومشكلات الحضارة، ط7 ، دار الشروق ، بيروت 1982م ، ص 108 وما بعدها.

[21] كولن ولسن : سقوط الحضارة ، ترجمة أنيس زكي حسن ، دار العلم للملايين ، بيروت 1963م.

[22] فلسفة الحضارة ، ص 307.

[23] عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص 255-256..

[24] Someverll : Astudy of History p. 254.

وحتمية سقوط الحضارة الغربية ترجع إلى النظريات التي تأسست على ضوئها تلك الحضارة التي ارتبطت بقدرات الإنسان والطبيعة و من ثمّ فقد تحكمت تلك التفاسير في سيرورة الحضارة كما تحكمت في نشوئها ابتداءً.

2-2 الرؤية الإسلامية لعوامل قيام وسقوط الحضارات:

2-2-1 قيام الحضارات في الرؤية الإسلامية :

إنّ قيام أو سقوط الحضارة - كما سبق أن ذكرنا- يكمن في صميم الموقف البشري نفسه لا في الطبيعة أو العلاقات المادية ، إنما في إطار الإرادة الإنسانية فقد أستخلف الله الإنسان في الأرض لأداء دوره الحضاري فيها ، ومن ثم فإنّ أسباب تقدّم المجتمع وأسباب تأخره وانحطاطه تعود للإنسان نفسه ، وقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهو يتحدث عن الأرضية التي تبذر فيها بذور الرُّقي والانحطاط حيث أكدّ أن أي تغيير في عالم الشهادة يبدأ من نفوس النّاس سواء كان ذلك نحو الأحسن أو نحو الأسوأ ففي (سورة الرعد الآية 11) يذكر (**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) وفي (سورة الأنفال الآية 53) يذكر (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**) وصورة ذلك أنّ الانقلاب إلى الرُّقى أو الانحطاط له درجتان : **الأولى** : درجة الانقلاب الذهني أو النفسي ، **والثانية** : درجة الانقلاب العملي أو الخلقي، والأول يتعلق بالتغيير الداخلي، والثاني يتعلق بالتغيير الخارجي ، أي أنّ الأمة إذا تدرجت إلى الرُّقي فإنّ إصلاح القوى الداخلية يتحقّق في البداية ، وتتغير الأفكار والأحاسيس والتصورات للحياة ثم تنشأ الجواهر وحينما تصاب أمة بالذل والنكبة تفسد أولاً قواها الدَّاخلية ويتغيرَّ الفكر والنظم ثم تنشأ الجراثيم التي تقضي على أهلية الحياة بالتدرج كذلك . أي أنّ بقاء الأمة مرهون بصلاحها داخلياً أولاً ثم خارجياً بعد ذلك . وفناؤها مرهون بفساد نفوسها أولاً ثمّ فساد أعمالها بعد ذلك ، فسنة الله في خلقه أنّ الصالح يبقى لأنّ فيه للبشرية نفعاً ، وغير الصالح لا يبقى لأنه لا نفع فيه (**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**).(سورة الرعد ، آية 17)[25]

والقرآن الكريم يؤكِّد على أنَّ أي تغيير لا يمكن أن يتم إلا بتغيير ما بالأنفس (**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) (سورة الرعد آية 11). (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**) " (سورة الأنفال آية 53) ، ومعنى هذا أنّ الأمة السَّاعية للرقى تحقِّق في البداية إصلاح قواها الداخلية، وتغيّر أفكارها وأحاسيسها وتصوراتها للحياة لتنشأ بعد ذلك الجواهر وتنمو فتتحقق صلاحية الحياة العملية بالتدريج. أي أنّ بقاء الأمة مرهون بصلاحها داخلياً أولاً ثم خارجياً بعد ذلك ؛ وفناؤها مرهون بفساد نفوسها أولاً ثم بفساد أعمالها بعد ذلك[26]. وهذا التغيير الداخلي للأنفس هو ما يقوم به الإيمان، إذ إنّ الإيمان هو الوسيلة الوحيدة لتنشئة الأفراد على سيرة محكمة من الدرجة الأولى ، وهو الذي يطبع الأفراد على الصدق والإخلاص والأمانة والعفاف ومحاسبة النفس وضبط نوازعها، وإيثار الحق وسعة النظر والقلب وعلو الهمة والكرم والسخاء والفدائية والتضحية والتواضع والخضوع والشعور بالواجب والاستقامة والشجاعة والبسالة

---

[25] وأنظر: محمد تقى أميني : النظام الإلهي للرقي والإنحطاط ، ط1 ، ترجمة مقتدى حسن الأزهري ، دار الصّحوة للنشر ، القاهرة 1988م ، ص 60-61 ..

[26] أميني : مصدر سابق ، ص61.

والقناعة، والاستغناء، وعاطفة السَّمع والطاعة واتباع القانون، ويؤهلهم لأن يبرز بهم إلى حيز الوجود أحسن مجتمع وأطهره"[27].

إنّ مما لا شك فيه أن تغيير عالم الأنفس لا يتم إلاّ وفقاً لفكرة عن حقيقة الوجود وغاية الحياة وينعكس ذلك على عالم الآفاق فينشأ من دفع الفكرة وتوجيهها نمطاً حضارياً معيّناً وهو ما أكّده مالك بن نبي " إنّ حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضُّر الدفعة التي تدخل به التاريخ ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته ، أنه يتجذّر في محيط ثقافي أصلي يحدَّد سائر خصائصه التي تميّزه عن الثقافات والحضارات الأخرى[28].

إذا كانت الحضارة تعتبر وليدة فكرة فإن هذه الفكرة ينبغي أن تحمل تصوراً معيناً للإله والإنسان والكون والحياة وللعلاقات الناشئة بينها والتي تشكّل بمجملها علم العقيدة أو الإيمان حسب المصطلح القرآني. وقد يتبادر إلى الأذهان تساؤل هو : كيف يكون الإيمان بالله هو الموفَّر للشروط النفسية للتعمير والحال أنّ حضارات مشهودة سادت العالم بإنجازاتها وقد قامت بغير إيمان بالله ومن بينها الحضارة الغالبة اليوم؟. والجواب أننا لو تفحصنا أمر هذه الحضارات لوجدنا أنّ الشروط النفسية التي كانت منطلقاً لإنجازها لم يتم لها اكتمال فبقيت منقوصة في بعض أركانها ، وكان لذلك انعكاس بيَّن في طبيعة بنيتها فإذا هي معيبة من جرّاء نشوئها على غير إيمان بالله بما حملته في نفسها من بذور الفناء تعمل تحت بهرجها بما يؤول بها إلى الضعف والانحلال ذلك أنّ نزوع هذه الحضارة إلى الفعل لم يكن مفضياً إلى التعمير الشامل ماديّاً وروحيّاً وأخلاقياً ، إذ انحصر فعلها الحضاري في الجانب المادي الذي غرضه الأعلى تحقيق الرّفاة وإشباع الشّهوة ، وانعكس ذلك سلباً على أهل تلك الحضارة فإذا بالشعور بالخوف والقلق يسيطران على مجتمعاتها وما ذاك إلا لقيام الحضارة على أساس غير الإيمان بالله [29] ، (**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**).(سورة طه ، آية 124)

إنّ الإيمان بوصفه الأساس الذي تقوم عليه الحضارة ترتبط علاقته بالتحضر بما يحدثه من آثار في الحياة العملية للإنسان ، إذ إنه يصبغ الحياة كلها بصبغته، ويضفي عليها من خيّرته ما لا تناله أبداً بدونه (**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى 123 وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**).[30](سورة طه آيات 123 - 124)

وعلى ضوء ما ذكرنا يمكن تلخيص سببية الإيمان وأهميته في عملية الحضارة في النقاط الآتية :-

---

[27] أبو الأعلى المودودي : الحضارة الإسلامية ، ص 290-291.

[28] مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص 41.وللتوسع في علاقة الفكرة بالحضارة راجع:

- المسيري: إشكالية التحيُّز ، رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- أمزيان: منهج البحث الاجتماعي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي مصدر سبق ذكره ،ص306-307.

-محمد المبارك : نظام الإسلام، العقيدة والعبادة دار الفكر، دمشق 1981م، ص35.

- زريق : في معركة الحضارة، مصدر سبق ذكره، ص129-141 .

-جعفر شيخ إدريس: التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية ، مجلة المسلم المعاصر، العدد 12،الكويت ، ذو الحجة 1397هـ، ص61 .

[29] عبد المجيد النجار : الإيمان والعمران ، مجلة إسلامية المعرفة ، ع (8) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، أبريل 1997م، ص 54-55.

[30]وأنظر : عبد المجيد النجار : الإيمان والعمران ، مجلة إسلامية المعرفة ، العدد الثامن ، ابريل 1979 ، ص40.

أولاً : إنّ الإيمان بيَّن حقيقة الوجود ورسم غاية الحياة. وحقيقة التوحيد في بنيتها الشمولية ممثلة لجوهر العقيدة هي التي رسمت المسار الذي يجرى عليه البناء الحضاري كله. وقد أجاب القرآن الكريم في تقريره لأصول الإيمان على التساؤلات الكلية حول المبدأ والمصير، والعلاقة بين الخالق والمخلوق وهى الأسئلة التي خاضت فيها الفلسفة دون أن تصل إلى النتائج المطلوبة ذلك لأنّ الفلسفة قد استندت إلى العقل في بحوثها الميتافزيقية دون وضع اعتبار للتفرقة بين عالمي الغيب والشهادة.. فالعقل في التصور القرآني قاصر عن الوصول إلى نتائج تزول معها الشكوك في البحوث الماورائية فهو ليس عقلاً ذا مدى وجودي ومعرفي[31].

ثانياً : إذا كان لكل دائرة حضارية نظريتها المعرفية التي تحدِّد لها خصائصها الجوهرية وتمنحها هويتها الثقافية والاجتماعية المتميِّزة وتكون النظرية المعرفية عادة مرآة تعكس أوجه نشاطاتها الفكرية المتعدِّدة وفى كافة تجلِّياتها فإنّ الإيمان هو الذي يشكِّل الوعي الجمعي لمجتمع تلك الدائرة الحضارية. حيث يصدر الوعي الجمعي لهم على مستويات ثلاثة متضايفة[32]:

أ- منظومة عقائدية تحدِّد وجهة الإنسان الكلية عن الوجود والحياة .

ب- مواقف مخصوصة معيّنة من الوجود والحياة الإنسانية والعالم تتشخص في طريقة مخصوصة في الحياة وتتجسد في نمط سلوكي له خصوصيته .

جـ- ولأنّ الدين لا يشكِّل مرتكز الحياة الفكرية فحسب بل هو خطاب يتّسم بالعالمية وإلاّ غاب الالتحام بين المؤمنين به، وجب أن يتخذ الإيمان صيغة هوية اجتماعية مشتركة. وبهذا فإنّ الدين يحدِّد معالم وحدة اجتماعية تتشكل من أفرادها الذينّ أصبحوا أمة مخصوصة لها عقيدة نظرية وتسلك في الحياة منهجاً أخلاقياً واحداً ولها هوية اجتماعية مشتركة .

ثالثاً : الإيمان في التصور القرآني يبدأ كعملية باطنية حيث يتم إصلاح القلب الذي يعتبر منبعاً للعوامل الباطنية. ثم يتحقّق التغيير في الذهن ووجهة النظر وينعكس ذلك على الأعمال. وهذا يعني أن الإيمان في التصور القرآني ليس عملية جوانية[33] تتعلق بالقلب دون أن تنعكس على عالم الشَّهادة بالأعمال. كما أنه ليس عملية برّانية تركِّز على عالم المادة دون اهتمام بإصلاح الباطن، فالإسلام على النقيض من اليهودية التي هي ديانة مقفّلة على ذاتها تهتم بالعالم الخارجي فنظرتها برّانية خالصة. ولهذا فإنّ اليهود كما يشير برتراند راسل " **شاركوا ويشاركون في بناء الحضارة المادية ولكنهم ليست لديهم خطوات تستحق الذكر في عالم الثقافة الروحية**"[34]. وعلى النقيض من ذلك جاءت المسيحية نموذجاً لمثالية أخلاقية فائقة ومفارقة لا تمت إلى دنيا البشر بصلة جسّدها المسيح عليه السلام في خطاباته الموجّهة

---

[31] أبو يعرب المرزوقي : مفهوم السببيه، مصدر سابق ص (221)

[32] عرفان عبد الحميد: الاطار الفكري العام لنظرية المعرفة فى القرآن الكريم، مجلة إسلامية المعرفة ع (15)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا 1999، ص8 - 9.

[33] لمعرفة التفاصيل حول الجوانية أنظر: عثمان أمين: الجوانية أصول عقيدة وفلسفة وثورة، دار القلم، القاهرة 1964 .

[34] Russell , B . , History of Western Philosophy , London , Routledge 1991 , P . 329 . ، وانظر على عزت بيجوفيتش : الاسلام بين الشرق و الغرب ، ط 1 ، منشورات مؤسسة بافاريا، يناير 1994م ، ص 273 ،274.

إلى اليهود خاصة واصراره على غربته الوجوديه في العالم وحنينه الطاغي إلى العالم الإلهي[35] . وإذا كان الإيمان ليس جوانياً فقط فإنه ليس برانياً فحسب أيضاً فهو - إذن - قائم على التوسط بين الجوانية والبرانية[36]. ولقد أكّد القرآن على أن التغييرات الخارجية فى المجتمعات منوطة بتغيير ما بالأنفس (**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) (سورة الرعد، آية 11) ويتكرر ذات المعنى في سورة الأنفال (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**) (سورة الأنفال، آية 53) وقد أصبحت هذه الوسطية في المبادئ الإسلامية سيرة للمسلمين بَنَوا عليها حياتهم كلها فكراً وسلوكاً ، فإذا هذه الحياة تقوم على العدل في التصوّر الوجودي يُتخذ فيه العالم المادي باعتباره حقيقة واقعية مأخوذة بالاعتبار والاحترام ويتّخذ منطلقاً للتعمير ، ومزرعة للاستثمار ، ولكنهما تعمير واستثمار لا يبتغيان لذاتيهما بل يتّجه بهما إلى الوجود الأكمل وهو الله تعالى ابتغاء لمرضاته . وإذا بصورة الحياة تجري على توازن بين مطالب الجسم المادية ومطالب الروح المعنوية : تمتعاً بطيبات الرزق دون حرمان في اتجاه روحي إلى الله بالعبادة ، كما تجري على توازن بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع دون إهدار لهذا أو لذاك . وتجلّى ذلك العدل كله في الحضارة الإسلامية كما نرى في آثارها المكتوبة والمرسومة، وفيما بقى منها سارياً في حياة الأمة . ولك أن ترى شاهداً على ذلك في هذه العلوم السلوكية الروحية وتلك المادية الكونية . وفي هذه الآثار العمرانية مثل المدن الإسلامية التي امتزج فيها المعمار المادّي مع البعد الروحي المتمثّل في صياغتها على أساس التوحيد ، بحيث يمكن القول أنّ هذه الوسطية كانت قاعدة أساسية من قواعد فقه التحضّر الإسلامي في جوانبه الفكرية والسلوكية والتعميرية على حدّ السواء[37].

رابعاً : إنّ إصلاح الباطن - الذي هو مناط التغيير - يتم من خلال منهج التزكية للنفس ارتقاءً بها إلى الكمال. وهذا المنهج تلعب فيه العبادات دوراً كبيراً فتكتسب النفس قيماً أخلاقية مأمورة بها في الدين من جانب ؛ ومن جانب آخر تجتنب أموراً منهية عنها في الدين. وبمعنى آخر تنشأ ملكة الحذر والاحتياط في اتخاذ الخطوات في مجال الحياة. وفى نواحي الفكر والعمل، وقد عبّر القرآن عن ذلك بكلمة التقوى. وهي في الحقيقة اسم لكيفية روحية تتعلق بالقلب وتوجد بها حساسية وشعور في الإنسان فيتمكن من التمييز بين الخير والشر[38]. وعلى ضوء ذلك فإنّ النظام الأخلاقي الإسلامي الذي يحقِّق هدف التوازن في كيان الفرد والمجتمع يمتاز بميزتين أساسيتين:

---

[35] Irving M. , Zeitlin : Jesus and the Judaism of his Time , Cambridge , Polity Press , 1988 , P. 129

[36] وانظر عرفان عبد الحميد : المرتكزات الأساسية التي حفظت للأمة كيانها ، مجلة التجديد ، العدد الثاني، الجامعة الإسلامية ، ماليزيا 1997م، ص 42-43.

-ظاهرة التوسط أو الوسطية تعتبر خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية بجعل وإختيار إلهى (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**)(سورة البقرة آية رقم 143)

[37] عبد المجيد النجار : الشهود الحضاري ، ص 114.

[38] أميني : النِّظام الإلهي ، ص97 . وراجع فى موضوع التزكية: محمد تقى مصباح اليزدي: التزكية سبيل السّعادة الوحيد، مجلة رسالة الثقلين، العددان 17، 18، السنة الخامسة، المجمع العلمي لأهل البيت ، إيران، قم ، محرم - جمادى 1417هـ . 1996م، ص12-18

أ- إنّه نظام شامل بحيث تتسع دائرة الأخلاق الإسلامية فتشمل أفعال الإنسان الخاصة جميعاً أو المتعلِّقة بغيره سواء أكان هذا الغير فرداً أو جماعة أو دولة .

ب- إنّ الأخلاق ليست نسبية في الإسلام، وإنما تنبع من حقائق خالدة تستند إلى الوحي الإلهي. وهذه النظرة قائمة أساساً على نظرة الإسلام التعادلية إلى الوجود، فمذهبية الإسلام في الوجود كلّه تقوم على أساس الترابط والتوازن، ولا تقوم على مبدأ النقيض الذي يفترض عدم وجود الحقائق الثابتة وينبني على ذلك نسبية الأخلاق في الحياة البشرية[39].

خامساً : وحيث إنّ القلب هو مقر الحياة الباطنية ومعقد الإلزامية الأخلاقيّة فإنّ النّية وحدها هي التي تقود المؤمن المسؤول أخلاقياً في أفعاله وفى علاقاته بالآخرين وفى علاقات الجميع بالله سبحانه وتعالى.

سادساً : إذا كان الإيمان هو التصديق الجازم بالقلب أي أنّه قضية داخلية في النّفس الإنسانية فإنّه يترتب على ذلك عدم إكراه النّاس على الدخول في الدين (**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**). (سورة البقرة، آية 256) وعدم تعقيد إجراءات الدخول فيه فكل من نطق بالشهادتين فهو محسوب من المسلمين. وهذا يتيح للإسلام خاصية الانتشار والتوسّع[40].

سابعاً : وإذا كان الإيمان هو المعرفة والتصديق والإقرار والعمل فإنّ هذا يعني تكامل العلم والعمل. وهذا يتيح للفعل الإنساني النماء والتطور مما يؤدي إلى تحقيق العمران للأرض وعدم الفساد فيها. أي تحقيق غاية الاستخلاف في الأرض. وهو ما يحقِّق مقاصد الشارع من وضع الشَّريعة . والتكامل بين عالمي الغيب والشَّهادة.

ثامناً : الإيمان بالله وتوحيده يمثِّل المركزية والمرجعية التي تنبثق عنها كافة المفاهيم والتصورات. فالله الواحد هو المبدأ والغاية لكل موجود ولكل فعل في الوجود. والقرآن الكريم يقرِّر حقيقة التوحيد بكافة أساليب الحجاج والاستدلال مؤكّداً بذلك على محورية الإله في الوجود ونافياً في ذات الوقت محورية الإنسان في الوجود ، مما يؤدِّي إلى بروز قيم المساواة والعدالة والحرية. وهذه القيم هي التجسيد الأخلاقي لقيمه التّوحيد. وإنّ التوحيد وما ينبثق عنه من قيم ليصبغ الحياة العملية كلها بصبغته ابتداءً من ما يضفيه على النفس من شعور بالطمأنينة والانسجام (**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ضرب**)[41](سورة الزمر آية 29)، أي وحدة النفس الإنسانية باتحاد جميع نوازعها مع فطرتها السليمة "فتستقيم حياة الإنسان وتتضافر قواه وصفاته النّفسية والعقلية لأداء مهمته في الحياة لأنها متجهة حول هدف واحد، وخاضعة لرب واحد"[42]. وإنّ حياة الجماعة المؤمنة لتستقيم كلّها على نهج الوحدة ، وحدة الشعور ووحدة الولاء ووحدة الغاية ، بحيث يصير كل نشاط ذهني أو عملي دائراً في بنيته أو غايته على قانون من الوحدة إنّ مبدأ توحيد الإله ذاتاً وصفاتٍ ومبدءاً في الخلق ومدبّراً في الكون وحاكماً في حياة النّاس ومعبوداً لهم ، ومنتهى لكل

---

[39] محسن عبد الحميد: الإسلام والتنمية الاجتماعية ، ط1، دار المنارة للنشر والتوزيع، السّعودية، جدة 1989م، ص141 .

[40] عرفان عبد الحميد: المرتكزات الأساسية التي حفظت للأمة وحدتها، مصدر سابق، ص31.

[41] وللتوسع في معرفة أبعاد التوحيد لدى مفكري التجديد المعاصرين أنظر: - فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ص191-257.
وراجع : محمد عبده : رسالة التوحيد ، دار النصر للطباعة، القاهرة 1969م.

[42] القره داغي: مصدر سابق، ص80 .

الكائنات في المصير هو الذي يمنح الحضارة الإسلامية هويتها ويربط جميع مكوناتها معاً ليجعل منها كياناً عضوياً متكاملاً نسميه حضارة ، وفي ربط هذه العناصر معاً يقوم جوهر الحضارة – وهو التوحيد في هذه الحال – بطبع تلك العناصر بطابعه الخاص ثمّ يعيد تكوينها بشكل يتناسق مع العناصر الأخرى ويدعمها . ولا يقوم الجوهر ضرورة بتغيير طبيعة تلك العناصر بل يحوَّلها ليصنع منها حضارة ويعطيها صفاتها الجديدة التي تكوَّن الحضارة . وقد برزت هذه العلاقة في أذهان المسلمين الذين كانوا يتابعون ظواهر الحضارة لذلك اتخذوا التوحيد عنواناً لأبحاثهم وأدخلوا جميع الموضوعات الأخرى تحت لوائه . وقد عدّوا التوحيد أهمّ المبادئ الأساسية التي تضم أو تحكم جميع المبادئ الأخرى ، كما وجدوا فيه المنبع الرئيس أو المصدر البدئي الذي يحكم جميع الظواهر في الحضارة الإسلامية[43] .

والتوحيد أو مبدأ وحدانية الله المطلقة وترفّعه وغائيته يعني أنّ الله وحده الجدير بالعبادة والطاعة، والإنسان المطيع يحيا حياته في ظل هذا المبدأ، ويسعى أن تكون جميع أفعاله متسقة معه لتحقيق الغاية الإلهية ، وتكون حياته برهاناً على التوّحد بين عقله وإرادته، وحياته لا تكون سلسلة من الأحداث المتجمعة كيفما اتفق بل مرتبطة بمبدأ واحد شامل يجمعها في إطار واحد، في وحدة واحدة ، وهكذا تكون حياته ذات أسلوب واحد وشكل متكامل هو الإسلام.

وتأسيساً على ما سبق فإنّ التوحيد هو محور الحضارة الإسلامية ، وهذه المحورية تعني أنّ الحضارة الإسلامية تُعتمَد في أصولها وتتفرع بالتالي من الأصول كل الفروع على استيحاء مبادئها الرئيسة لها من توحيد الإله عز وجل " **فما من حقيقة من حقائق الدين الشاملة عقدية كانت أو تشريعية إلاّ وهي منبثقة عن التوحيد وراجعة إليه ، فهو روح الدَّين كلّه السَّاري فيه مسرى الماء من النبات ، أيما موضع انسحب منه أصابه الجفاف وآل إلى التلاشي**"[44]. وهذا يعني[45]:

أ- إنّ الحضارة الإسلامية حضارة إيديولوجية مبدئية "عقدية" تعتمد على الإيديولوجية والمبدأ اعتماداً كلياً . ولأنّ هذه الإيديولوجية ركيزة أساسية في الحضارة الإسلامية فإنّ أية دعوة للحضارة الإسلامية منسلخة عن إيديولوجية التوحيد تعتبر انحرافاً وضلالاً عن الخط الرئيسي لها ، فالذين يريدون إسلام بلا إله أو دنيا بلا آخرة أو أحكام بلا روح إنما هو تأثير وتوجه نابع من الحضارة المادية لا يمت إلى الحضارة الإسلامية بصلة.

ب- إنّ مبدأ الحضارة الإسلامية الذي هو التوحيد يعتمد على أساس الوحدة لا التنويع ولأجل هذا فالحضارة لا تعترف بإلهين ولا تعتقد بإمكانية تجزئة حياة الإنسان الفردية أو الاجتماعية أو حتى تجزئة العلوم إلى مجالات مختلفة ومتضاربة .

ج- إنّ الحضارة الإسلامية التوحيدية تبتدئ من الله وتنتهي إليه ، ولهذا فإنّ الفروع والأصول تبدأ من ذلك أيضاً وتنتهي إليه. والنتيجة- إذن – أنّ محورية التوحيد في الحضارة الإسلامية ثابتة وعقيدة ولهذا فإنّ تأثيراتها تصل إلى كل حكم وكل قانون وكل توجيه ، وتنبثق من هذا الأساس سائر القواعد المتينة التي تعتمد عليها الحضارة الإسلامية مثل الاستقلال والأمن والخير والصلاح والتكامل والتقدُّم . وعلى هذا الأساس تتضح بعض معالم الحضارة الإسلامية

---

[43] إسماعيل راجي الفاروقي ولوس لمياء الفاروقي : أطلس الحضارة ، ط1 ، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ، مكتبة العبيكان والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الرياض 1998م ، ص 131.

[44] عبد المجيد النجار: الشهود الحضاري، ص 59-60 . وأنظر المودودي : الحضارة الإسلامية، ص 68.

[45] محمد تقي المدرسي : حضارة التوحيد ، WWW.modrresi.Com/books

فهي حضارة الإنسان ، وهي حضارة الجمال وهي حضارة التطلع والبحث عن الأفضل. **وعقيدة هذا موقعها من الدَّين من شأنها أن تطبع معتنقيها في ممارستهم للحياة كلها فكراً ووجداناً وسلوكاً بطابع الوحدة بحيث يصير كل نشاط ذهني أو عملي دائراً في بنيته وغايته على قانون من الوحدة التي تتآلف بها المختلفات ، وتتوحد بها المقاييس ، وتلتقي بها المشارب على هدف مشترك وذلك ما يبدو نظرياً منطقياً في تجربة الحضارة الإسلامية في كل من الفكر والعمل**[46].

تاسعاً : إذا كان الله هو المبدأ والغاية لكل موجود ولكل فعل في الوجود فإنّ جماعة المؤمنين يتولونه ويوالون فيه. ويجعلونه الحاكم ويتحاكمون إلى كتابه ويتوجهون بالعبادة إليه وحده (**وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِلّهِ**)(سورة البقرة آية 165) وهذا يعني أنه لا انفصال بين العقيدة والشَّريعة و النظرية والتطبيق حيث إنّ الجانبين متكاملان. فمن المستبعد أن يكون الإيمان كاملاً إذا كانت جماعة المؤمنين تدين بالعقيدة تديّناً تجريدياً نظرياً دون أن تنعكس هذه العقيدة على واقعها فتكون الحاكمة عليه .

عاشراً : يلزم الإيمان جماعة المؤمنين العمل بأصول نظريتهم العقدية وتطبيقها بالقوة إن اقتضى الأمر ذلك. ومن ثمّ صارت الهجرة[47]، والجهاد[48]، والنّصرة[49]، مناط الإيمان. فليس المؤمن بمعذور في قبوله عيش الذّل والرضاء بالكفر وأساليبه، والاستثناء الوحيد ورد لطائفة المستضعفين (**إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**)(سورة النساء آية 98) ولعل السِّر في ذلك يرجع إلى أنّ الأمة الإسلامية منوط بها الشهادة على النّاس والقيادة لهم، ومن ثم فإنّ استكانة أفرادها لواقع الشرك فيه قضاء على هذا الهدف الإلهي. والقرآن يقرّر أنّ واجب الأمة تبليغ رسالة الإسلام أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر (**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ..**)(سورة الأحزاب آية 39)(**فَلاَ تَخْشَوْاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ**)(سورة المائدة آية 44) (**فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**)(سورة البقرة آية 150) ذلك أنّ الغاية الكبرى من الفعل الإسلامي هي إظهار دين الإسلام على غيره من الأديان (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**

---

[46] عبد المجيد النجار : الشهود الحضاري ، ص 60.

[47] انظر فى الآيات التى تحث على الهجرة وتوضح مقام المهاجرين فى سبيل الله: البقرة الآية 218. آل عمران 195. النساء 89، 97، 100. الأنفال 72، 74، 75. التوبة 20، 100، 117. النحل 41، 110. الحج 58. النور 22. العنكبوت 26. الممتحنة 10.

[48] انظر الآيات التى تحث على الجهاد وتوضح مقام المجاهدين فى سبيل الله: البقرة 218. آل عمران 142. النساء 95. المائدة 35، 54. الأنفال 72، 74-75. التوبة 16، 20، 24، 41، 44، 73، 81، 88. الحج 78. النحل 110. الصف 11. الفرقان 52. التحريم 9

[49] انظر الآيات التى توضح النصرة وتحث عليها: الأنفال 72، 74. الأعراف 157. الحشر 8 .

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).[50](سورة التوبة آية 33) وعلى ضوء ذلك فإنّ جماعة المؤمنين أمة من دون النّاس لها خصائصها وشخصيتها التي تميّزها عن جماعة الضالين والمغضوب عليهم[51].

ثاني عشر : إنّ القرآن الكريم يؤكّد أن سعي الإنسان في هذه الدنيا مربوط بالدار الآخرة. بحيث يكون الحساب والجزاء النهائي للإنسان على أعماله أمام الله يوم القيامة. وهذا ما يقتضيه العدل الإلهي. ومن ثمّ كانت عناية القرآن الكريم بتوجيه النفس الإنسانية وسبل ترقيتها من خلال تصوير حقائق اليوم الآخر وإشعار الإنسان بوجود الرقابة على أعماله وذلك من خلال الحديث عن عالم الملائكة .

ثالث عشر : إنّ الإنسان في التّصور القرآني حر ومسؤول عن أعماله حيث إنّ وجوده قائم على التكليف. وهذا التكليف ابتلاء للإنسان ، والابتلاء يستلزم حرية الاختيار حتى يتحمل الإنسان المسؤولية عن أعماله ومن ثم فلا جبرية في دائرة التكليف. وعلى هذا فإنّ الإيمان بالقضاء والقدر لا يشل فاعلية الإنسان بل إنّه ليصنع الإنسان الفاعل إذا فُهم القضاء والقدر فهماً صحيحاً (**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) (سورة النحل آية 76)

و الخلاصة هي أنّ أي تغيير ناجح في عالم الشهادة لإحداث التحضُّر أو استعادته لا بد أن يبدأ من تغيير ما بالأنفس وهذا لن يتحقّق إلا من خلال المنظومة الإيمانية التي تنبثق كلها عن عقيدة الإيمان بالله وتوحيده. وحينما يتم تثبيت العقيدة الصحيحة في النفوس فإنه يسهل تحقيق كل شئ. ومهما يكن من أمر فإنّ أمور الإيمان التي تقوم عليها الحضارة ، فيها من جانب القوى التي تحلّي الإنسان بالأخلاق الجميلة والملكات الحميدة وتعمل على تنميتها والمحافظة عليها ، وفيها من جانب آخر جميع القوى التي تحرضه على الرقي والتقدُّم في الدنيا وتؤهله لأن يستغل أسباب الدنيا ووسائلها ، وهي إلى هذا تنشئ فيه الأوصاف والأخلاق الفاضلة التي لا بد منها لإحراز الرُّقي والتقدُّم الحقيقي في الدُّنيا. وفيها أكمل قدرة على أن تنظم قوى الإنسان العملية وتحركها بنظام، وفيها مع ذلك أكمل قدرة على أن لا تدع هذه الحركة تتعدى حدودها المشروعة وتنحرف عن الطرق والمناهج التي يؤدي الانحراف عنها إلى الهلاك[52].

وهكذا فإنّ الإيمان الذي يقوم عليه بنيان الدين يجئ دائماً بمثابة معامل حضاري يمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ويوجهها نحو مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها فيزيدها عطاءً وقوة وإيجابية وتناسقاً .. كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان لكي يبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية ، ويقظة الضمير ، ويدفعه إلى سباق زمني لا مثيل له لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجر طاقاته

---

[50] وأنظر الفتح آية 28 .

[51] لقد اكّد دستور دولة المدينة فى بنوده على أن المؤمنين أمة من دون النّاس. راجع في ذلك الحيدر آبادي : محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي وعهد الراشدين . وفيما يتعلق بتميُّز الأمة الإسلامية بخصائصها ونهيها عن التشّبه بغيرها من الأمم فمن المفيد مراجعة كتاب ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ، ففيه تأصيل لهذا الموضوع .

[52] المودودي : الحضارة الإسلامية ، ص 291.

ويعبَّر عن قدراته التي منحه الله إياها على طريق القيم التي يؤمن بها والأهداف التي يسعى لبلوغها فيما يعتبر جميعاً في نظر الإسلام عبادة شاملة يتقرب بها الإنسان إلى الله ... وهكذا تجئ التجربة الإيمانية لا لكي تمنح الحضارة في مرحلة نشؤوها ونموها وحدتها وتفردها وشخصيتها وتماسكها وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار فحسب ، وإنما لكي ترفدها بهذين البعـدين الأسـاسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسـجامها مع نواميس الكون والطبيعـة(**أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**) (سورة آل عمران آية 83)، ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤوليتهم ويعانون يقظة ضمائرهم ويسابقون الزمن في عطائهم لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر و(**لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا**)(سورة القصص آية 83).

2-2-2 عوامل سقوط الحضارات في الرؤية الإسلامية :

إنّ أسباب سقوط الحضارات في الرؤية الإسلامية – كما أسلفنا - ترجع إلى الإنسان وإرادته وهذا يجئ امتداداً لنظرية استخلاف الإنسان في الأرض لعمارتها وتحقيق العبودية لله عليها، وقد سخر الله كل ما في الكون للإنسان ليعينه على أداء دوره ، والله (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**) (سورة الأنفال آية 53) أي أنّ الله " لا يزيل ما بقوم من العافية والنعمة والرخاء والهناء ويبدلها بالآلام والأمراض والنوازل والفتن والأحداث وغيرها من ضروب العقاب الرباني حتى يزيلوا هم ويغيروا فيجحدون النعمة ويعلنون الكفر والمعاصي ويتمردون على سنن الله في اسعاد البشر ويتظاهرون بالفحش والمنكر والفساد فتكون النتيجة أن تحل بهم قوارع الدهر وينزل بساحتهم عذاب من الله "[53].

وكما أنّ الحضارة تؤسَّس على الأخلاق المنبثقة عن الإيمان بالله فإنّ سقوطها يؤسَّس على سوء الخلق ، فكلما التزمت جماعةٍ ما بمزيد من القيم الأخلاقية وكلما سعت إلى صقل هذه القيم وتأصيلها في أعماق البنية الاجتماعية ؛ كلما تمكنت من حماية وحدتها وتأخير عمرها الحضاري ، وابعاد شبح التدهور والسقوط بالتالي . وكلما بدأت جماعة بالتخلّي عن هذه الالتزامات واطراحها جانباً وعدم السَّعي لبلورتها وتعميقها في الممارسة الجماعية كلما عرضت وحدتها للتفتيت وآذنت معطياتها ونشاطاتها الحضارية الشاملة بمصير سئ قريب.

ومعروف لدى فلاسفة التاريخ والحضارة أنّ الحضارة التي تتمخض عن عقيدة ما، يرتبط مصيرها إلى حد كبير بدوافع نشوئها ، فإذا ضعف الدافع العقدي أو عانت المعطيات الحضارية من تقطعه وغيابه بهذه النسبة أو تلك فقدت قدرتها على النمو والاستمرار ، وتفككت الأواصر التي تشد أجزاءها وتحركها صوب هدفها المرسوم[54].

وتسهم عوامل ومؤثرات شتى : عقدية وسياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية في سقوط الحضارة. وليس بالضرورة أن يكون السقوط دائماً وهو زوال الأمم من الوجود وفناء أفرادها كما هو الحال مع الأقوام البائدة ، وإنما هو الانهيار الداخلي للمجتمعات وذهاب قوة الأمم وعزتها وهوانها على الأمم الأخرى ، أي أن تتنازل الجماعة عن مركزها

---

[53] عبد الله التليدي : أسباب هلاك الأمم ، ص 22 . ومحمد هيشور: سقوط الحضارات ، ص 22.

[54] عماد الدين خليل : حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية ، مجلة التجديد ، العدد (8) ، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا أغسطس 2000م ، ص 17.

القيادي وتتراجع إلى الخطوط الخلفية لكي تمارس التبعية للجماعات الأقوى بعد أن كانت متبوعة مطاعة[55] ، والقرآن الكريم يسمى هذه الظاهرة بالاستبدال وهو من سنن الله في التاريخ (**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء**) (سورة الأنعام ، أية 133) . (**وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا..**) (سورة هود ، آية 57)(**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**](سورة محمد ، آية 38) (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**)(سورة المائدة آية 54) فحيثما دبّ الفساد وعمّ الخراب جاء السقوط والاستبدال بالأصلح والأنفع لتتواصل مسيرة البشرية كما اقتضت الحكمة الإلهية .

وقد سبق أن ذكرنا أنّ مذاهب التفسير الوضعي للتاريخ أجمعت على حتمية سقوط الحضارات لعوامل أسلفنا ذكرها ، والتفسير الإسلامي يقرَّر حتمية سقوط الحضارات غير أنه يقرَّر في ذات الوقت إمكانية أية أمة أو جماعة أن تعود باستمرار لكي تنشئ دولة أو تجربة جديدة أو تتولى زمام القيادة الحضارية بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك وأولها عملية التغيير الداخلي التي أكّد القرآن على حدها الإيجابي بقوله (**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ...**) (سورة الرعد ، آية 11) ، وهكذا يعود أمر السقوط والنهوض للموقف الإنساني.

إنّ من الأسباب الأساسية للسقوط الحضاري في الرؤية الإسلامية : الشرك والنفاق والترف والفسوق والطغيان والاستغلال والمكر، والاغترار بالنفس وعدم الاستقرار والأنانية وترك العمل واتباع الباطل ، فالشرك والنفاق ينزعان اليقين من القلب حتى لو بقى التسليم بالنظريات والأصول تسليماً ظاهرياً. وترك العمل أو سوء العمل ينزع من أفراد الأمة الصلاحيات التي يحتاج إليها لتنفيذ الأصول والنظريات ، وينفي عنهم الاستعداد للتضحيات اللازمة والطاعة الواجبة ، ويترتب على ما مضى ميلهم إلى اتباع الباطل والاغترار بأنفسهم ومن ثمّ تنعدم فيهم صفة الاستقلال وضبط النفس بل يسيطر عليهم الأنانية وعدم الثبات[56] .ويمكن إجمال أسباب السقوط في الرؤية الإسلامية في النقاط التالية:

1-الكفر والشرك:

إنّ الكفر أو الشرك يعني انفصال الحضارة من الدّين وتحررها من سلطانه وهذا يفضي بها ولا بد إلى انحلال الأخلاق وانحطاطها عاجلاً أو آجلاً . وهذا ما يبدو جلياً في حالة الشقاء التي يتعرض لها المجتمع الكافر أو المشرك (**قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) (سورة البقرة ، آيات 38-39) (**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**)(سورة طه ، آية 123-124) (**فقلت استغفروا إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً**)(سورة نوح ، آيات 10-12) (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) (سورة النحل ،

---

[55] راجع : عمر فروخ : الإسلام والتاريخ ، دار الفكر العربي ، بيروت 1983م ، ص 160.

- محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، ص 219.

[56] سورة البقرة ، آيات 38-39.

آية 97)(**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**)(سورة النحل ، آية 112) (**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**)(سورة الكهف ، آيات 103-105) (**لَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**)(سورة النور ، الآية 39).

إنّ تجربة الحضارة المعاصرة وصيحات مفكري تلك الحضارة ترينا الآثار التي ترتبت على الكفر بالله أو الإشراك به – وهي آثار هدّامة - (**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ**) (سورة الأنبياء ، آية 11) ومن ثم لا يمكن القول بأنّ الجنوح المادي الذي طالما تميزت به قوى الكفر منذ فجر التاريخ وحتى وقتنا الراهن كضرورة من ضرورات التصاقها بالأرض ورفضها أي إيمان بالغيب أو المثل العليا ، إنما يمثّل تعبيراً عن السعادة بمفهومها الشّامل ، على العكس فإنّ هذا الجنوح يمثّل نقصاً كبيراً وانحرافاً خطيراً في تجربة يملأ خلاياها وشرايينها بالتعاسة والشقاء[57].

ومهما يكن من أمر فإنّ الحضارة – أية حضارة – محكومة بالسنن الإلهية ، وهذه السنن في المجال الحضاري – كما أسلفنا – على نوعين ؛ سنن جزئية تتعلق بعالم الشهادة وهي سنن تعطي كل من يوظفها على قدر سعيه ولا تفرّق بين مؤمن وكافر ، وسنن كليَّة حاكمة على هذه السنن الجزئية، وهي سنّة الإيمان بالله وتوحيده ،وهي التي تحدّد مصير الحضارات نمواً أو سقوطاً . وتعتبر جميع عوامل سقوط الحضارات تبعاً لهذا العامل أي غياب الإيمان بالله وتوحيده.

2-الظلم

يعتبر الظلم من أكبر عوامل سقوط الحضارات وله مفهوم شامل عريض يؤدي إلى فقدان التوازن في كافة مجالات الحياة وعلاقات الانسان مع نفسه ومع الله ومع غيره . وعن هذا تنبثق ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مرضية وتصورات فاسدة عن الوجود كله فيعم الفساد الحياة الإنسانية بأسرها[58]. (**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**) (سورة هود ، آية 117) (**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**)(سورة هود ، آية 102)

والقرآن الكريم ينعي على جماعة المؤمنين قبول الظلم في أي شكل كان (**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**)(سورة النساء ، آيات 97-98) (**وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ**)(سورة إبراهيم ، آية 45) يقول ابن تيمية " إنّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وان كانت مسلمة ... الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام[59].

---

[57] عماد الدين خليل : التفسر الإسلامي للتاريخ ، ص 314-315.
[58] محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات ، ص 223
[59] ابن تيميه : الحسبة ، ص 17.

3- الترف :

وقف ابن خلدون طويلاً في مقدمته عند مسألة الترف ، واعتبر الترف حتمية ترتبط بعملية التحضُّر بانتقال الجماعات البشرية من البداوة والتنقل في الصحراء إلى الغنى والحضارة والاستقرار ، وعالج المسألة من جانبيها الأخلاقي والاقتصادي فبيّن في الأولى ما يؤول إليه الترف من تفكك في الأخلاق وركود في الهمة ينعكس بالضرورة على مسيرة الحضارة ويأذن بتوقف تدفقها الإبداعي وبالتالي بانحلالها ودمارها . وبيَّن في الثانية ما يعنيه طغيان الترف في مجتمع ما من اختلال في التوازن بين الإنتاج والاستهلاك ، ومن تضخيم للنزعة الاستهلاكية على حساب التنمية والعطاء الأمر الذي ينعكس هو الآخر سلباً على التطور الحضاري العام[60].

إنّ الترف ممارسة مدمرة سواء للجماعة كلها التي تسكت عليها وتغض عنها الطرف أو تغلو في انهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن ، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمى الثراء الفاحش وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية بصائرهم ويطمس على أرواحهم ، ويسحق كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم ، ويحجب عنهم كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدُّنيا وموقعه في الكون ، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمي الغيب والشهادة والمادة والروح [61] . والقــرآن الكريم يؤكِّد ذلك (**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**)(سورة القصص ، آيات 58-59) (**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**](سورة الإسراء ، آية 16) (**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ 34 وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**)." (سورة سبأ ، آيات 34-35)

4-التحلُّل الخلقي والسُّلوكي :

من أسباب سقوط الحضارات ظهور المعاصي وانتشار الفواحش في المجتمعات مع سكوت الناس عن تغييرها ذلك أنّ المعصية إذا صدرت من فرد وأتى بها خفية كان ضررها قاصراً عليه لا يتعداه إلى غيره ، أما إذا أصبح المجرمون المنحرفون يعلنون أجرامهم ويتظاهرون بفسوقهم ولم يوجد من يأخذ على أيديهم ويردهم عن عصيانهم دبّ حينئذٍ ضرر الفاحشة إلى العامة والخاصة ولم يبق وبالها مقتصراً على مرتكبيها[62]. وقدّم القرآن الكريم نموذجاً لذلك بقوم لوط وامرأة العزيز وصويحباتها كما جاءت سورة النور مبيِّنه لآثار الزنا . وناقشت السُّنة النبوية هذه الفواحش وآثارها في أحاديث الفتن والملاحم .

هذه العوامل تنبثق كلها في نهاية الأمر من الابتعاد أو الانحراف عن الإيمان بالله والتوحيد . ومما لا شك فيه أنّ القيم الأخلاقية المعيارية هي وليدة عقيدة الإيمان بالله وحيثما غاب الإيمان أو انحرف عن مسار التوحيد فإنّ النتيجة هي

---

[60] ابن خلدون : المقدمة ، ص 184 وما بعدها.

[61] عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص 273.

[62] هيشور : مصدر سابق ، ص 261.

ظهور الفساد في البر والبحر الذي يؤذن بالتدهور والسقوط . غير أنّ عوامل الإمكان الحضاري متوافرة للأمة للنهوض متى ما رجعت إلى عقيدتها "ومن الأمور المنطقية في قضايا الحضارات أنّ الحضارة لا تتجدّد ولا تقوم مرّة أخرى إلاّ في إطار منطلقها الأول وخصائصها الذاتية ، واستحضار ماضيها وربطه بحاضرها ، لأنّ الانسلاخ عن منجزات التاريخ أمر مستحيل"[63].

ثالثاً: تعارف الحضارات:

إنّ سؤال العصر هو : كيف يمكن أن نعيش سوياً ومختلفين في "فضاءات التنوع والاختلاف؟[64]، تنوع الأعراق واختلاف المعتقدات والرؤى نحو العالم؟ بالنظر إلى تجارب الاحتكاك بين الحضارات عبر التاريخ يتبين أنّ هذا الاحتكاك سبيل إلى مخرجات تفاعلية حضارية وليس تأكيداً لحقيقة اختلاف الحضارت التي يوظفها الغرب الآن كمحرك للصراعات، فتاريخ الاحتكاك بين الحضارات يبينِ عكس هذا مما يبينّ أنّ الطرح الراهن من جانب الغرب لاختلاف الحضارات هو توظيف سياسي بالأساس[65].

إنّ من المعلوم أن المركزية الغربية هي المسيطرة – في العصر الراهن – على مختلف الفضاءات، وهي مركزية تولدت من نسق ثقافي خاص وأنه نتيجة لتمخض شهده الغرب منذ القرن السادس عشر الميلادي وانه اشتق من حالة الغرب الخاصة وتكمن كفاءته في أنه زبدة ذلك الواقع الذي تجري محاولات تعميمه ليشمل العالم بكل الصيغ الممكنة[66] . وقد ظلت الثقافة بوصفها منظومة للتصورات الذهنية حاضرة في كل الصراعات عبر التاريخ ومن ذلك فقد استخدمت الثقافة في الفكر الغربي الحديث لتثبيت ضروب من التمايزات بين ما هو غربي وما هو غير ذلك، وبدأت تبنى على ذلك سلسلة من التراتبات الثنائية بين ما للغرب وما لسواه[67].

وقد سعى هذا النموذج المعرفي الغربي - في رؤيته للعالم وتقسيمه للمعمورة - إلى إلغاء الآخر والهيمنة على العالم مروّجاً لفلسفة نهاية التاريخ وصدام الحضارات ليتم له بذلك ترسيخ العولمة بحيث تصير هي البديل الحضاري العالمي. فنهاية التاريخ ما هي إلا تبشير بانتصار الليبرالية على ما عداها من إيديولوجيات باعتبار أنّ هذه الأيديولوجيات تحديات هامشية بما فيها التحدي الإسلامي. أما صمويل هنتيجتون فقد كان الأكثر تعبيراً عن حقيقية مفادها أن الثقافات والحضارات المرشحة لأن تشكِّل عائقاً أمام هذا الانتصار للحضارة الغربية وثقافتها تتمثل في الحضارة والثقافة الإسلامية والكونفوشيسية[68] . وقد أدّت هاتان الأطروحتان إلى بروز العولمة كواقع معيش حيث استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية

---

[63] محمد هيشور : مرجع سابق ، ص 273.

[64] راجع موضوعات العدد 31 – 32 من مجلة قضايا إسلامية معاصرة ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، شتاء 2006م.

[65] نادية مصطفى وعلا أبو زيد (محرران) ، خطابات عربية وغربية في حوار الحضارات ، ط2/دار السلام ، القاهرة 2007م ، ص 149

[66] عبدالله على إبراهيم : المجتمعات الإسلامية ورهانات الحداثة والعولمة ، قضايا إسلامية معاصرة ، العدد 31 – 32 ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد 2006م ، ص 246.

[67] المرجع نفسه ، ص 247

[68] انظر: - سيف الدين عبد الفتاح : مدخل القيم، إطار مراجعة لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام ، موسوعة مشروع العلاقات الدولية في الإسلام، جـ2، إشراف د. نادية مصطفى ، ط1 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة 1999 ، ص392-393 .

- Samuel Hantigton : The Clash of Civilization, Foreign Affairs , Summer 1993, P. 4984.

أن تفرض زعامتها على العالم كقوة وحيدة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وقد جرى تصوير الإسلام بأنه العدو[69] ، ومن ثم فإنّ الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها ممثِّلة للحضارة الغربية تقوم بمهمة المواجهة مع الإسلام.ولقد استطاع الغرب خلال هذا القرن الأخير أن يكيِّف التغيُّرات وفق منظومته الفكرية ونسقه القيمي ، وأن يدفع بتحولات شديدة التأثير كان من نتائجها الاستتباع الحضاري للغرب " فالغرب هو أكبر مؤثِّر على العالم في هذا الوقت ويسيطر على أهم العوامل تأثيراً كالمؤسسات الإعلامية ، السمعية والبصرية ووسائل الاتصال والمعلومات والمنظمات الاقتصادية والشركات متعدّدة الجنسيات... هذه العوامل والمؤسسات هي التي أنتجت العولمة وهي من أخطر محصلاتها ... الغرب الذي أبتكر مفهوم العولمة هو الذي حدَّد مضامينها وهويتها ومكوناتها الفكرية والاقتصادية . وهو الذي يقود حركتها في العالم ويروِّج لهذا المفهوم وهذا هو مصدر الخوف الذي تظهره الأمم والحضارات تجاه قضية العولمة لأنّ الغرب لا يريد إلا نفسه ولا زالت نزعة التمركز حول الذات هي التي تشكِّل عقليته، وإنّ تاريخ علاقاته بالأمم والحضارات كان محبطاً ومروعاً للغاية "[70] .

والعولمة هي محاولة تشكيل رؤية جديدة ومختلفة نحو العالم والنظر له ككل واحد وجعله إطاراً ممكناً للتفكير دون وضع اعتبار لاختلاف الثقافات والهويات والديانات فهي بهذا التصوُّر " ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي بل هي أيضاً وبالدرجة الأولى إيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم"[71] . حيث تبدأ بتكريس سيطرتها على السوق وتجريد الدولة القطرية من سلطانها وإشاعة ثقافة الاستهلاك ، وتجاهل البعد الاجتماعي وحاجات الفقراء ومع نمو العولمة يزداد تركُّز الثروة في أيدي مجموعة قليلة من الناس وتتسع الفروق بين البشر اتسِّاعا لا مثيل له[72]. فالعولمة على هذا الأساس " نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع إلى التفتيت والتشتيت ليربط النّاس بعالم اللاوطن واللا أمة واللا دولة أو يغرقهم في أتون الحرب الأهلية "[73]. وهذه هي النتائج الحتمية لفلسفات ما بعد الحداثة حيث الإعلان عن موت الإله ثم الإنسان ، ومن ثم فلا مجال للقيم فيتم تفكيك كل شيء ويظل المقياس والمعيار هو تحقيق المنفعة الفردية أو منفعة مجموعة من النّاس على حساب السواد الأعظم من البشرية. وابتداءً من أطروحات الأفلاطونية - التوراتية المحدثة الجرمانية ومروراً بأطروحات البرجماتية وانتهاءً بأطروحات الوجودية فإنّ الهدف الذي تسعى لتحقيقه هذه الفلسفات هو تكريس هيمنة

---

[69] راجع في ذلك: - يوخين هبلر وأندريا لويج: الإسلام العدو بين الحقيقة والوهم، ترجمة أيمن شرف ، الفرسان للنشر والتوزيع ، القاهرة 1994م ، ص19-54.

- جون اسبيزيتو: التهديد الإسلامي أسطورة أم حقيقة؟ الهيئة العامة للإستعلامات ، القاهرة 1995م.

Hipplar, Jochen and Andrea lueg (eds.) : The Next threat Western Perecption of Islam , Pluto Press and Trans national Institue, London 1995.

[70] الميلاد: زكي: الفكر الإسلامي وقضايا العولمة، مجلة الكلمة ، العدد "20" ، السنة الخامسة ، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث ، بيروت ، صيف 1998م،ص10.

[71] الجابري : محمد عابد: العولمة والهوية الثقافية ، عشر أطروحات ، المستقبل العربي ، العدد 228، بيروت، فبراير 1998م، ص16-17.

[72] للتوسع في مفهوم العولمة ومظاهرها وآثارها راجع:

- هانس بيترمارتين وهارالد شومان: فخ العولمة ، الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت..

- إمام: زكريا بشير: النظرية الاجتماعية في القرآن الكريم، ط1، مؤسسة التربية للطباعة والنشر ، الخرطوم ، يونيو 1998م ، ص292-316 .

- يسين : السيد : الكونية والأصولية وما بعد الحداثة، 2جـ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة 1995م.

- مبروك : محمد إبراهيم وآخرون : الإسلام والعولمة ، الدار القومية العربية ، القاهرة 1999م.

[73] الجابري : العولمة والهوية الثقافية ،مصدر سابق، ص19-20..

الحضارة الغربية ببعديها الرأسمالي والاشتراكي على العالم والتي انتهت به "إلى هذا المآل المقيت الساعي إلى ابتلاع العالم في عولمة الشر المفسد لباطن الإنسان بالتلوث الثقافي الأمريكي ومحيطه الطبيعي بالتلوث الصناعي الأمريكي[74].

إنّ العولمة في محصلتها النهائية هي محاولة لنفي الآخر " وأمركة" العالم من خلال فرض الثقافة الأمريكية وجعلها الثقافة العالمية المهيمنة بحيث تكون المرجعية لبقية الثقافات . ولقد انتقد صمويل هنتيغتون من يدعون إلى ثقافة عالمية واحدة مرجعيتها الغرب بقوله " كثيرون في الغرب يعتقدون أنّ العالم يسير نحو ثقافة عالمية موحدة وهي ثقافة غربية أساساً. ومثل هذا الاعتقاد متغطرس وزائف وخطر فانتشار السلع الاستهلاكية الغربية لا يعني انتشار الثقافة الغربية"[75] ، فحين تعرُّض سائر البلدان لعملية التحديث فإنها - وفقاً لأطروحات هنتيغتون - قد تتغرَّب بأشكال سطحية دون أن تفعل ذلك على صعيد الأبعاد الأكثر أهمية للثقافة أي على أصعدة اللغة والدِّين والقيم. وفي الحقيقة فإنّ البلدان حين تتحدث تلوذ بثقافتها وديانتها التقليدية هرباً من العالم الحديث[76] . ومن ثم فإنّ العولمة ليست هي البديل الحضاري لحل أزمات العالم إذ أنها وفقاً لأطروحتها تساهم في زيادة حِدّة الصراع بين الدُّول والجماعات .

تطرح الرؤية الكونية الإسلامية تعارف الحضارات كخيار ثالث بين نهاية التاريخ وصراع الحضارات ، حيث إنّ التصور الإسلامي لا يكرّس الصراع قانوناً تاريخياً مطلقاً كما تقدمه المدرسة الواقعية بروافدها المختلفة ، ولكن الصراع بمعنى التدافع كسُنة من سنن الاجتماع البشري[77] ويطرح القرآن الكريم مرتكزات أساسية لتعارف الحضارات تمثّل بجملتها رؤية الإسلام للعلاقة بين الحضارات هي :

أولاً : إنّ الاختلاف بين النّاس مبدأ تكويني فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون حياة الإنسان في الدنيا فترة ابتلاء واختبار يظهر فيها التزام الأفراد مبادئ الحق ويختبر من خلالها عزمهم على تطويع ميولهم وأهوائهم إلى القيم العليا التي انبنى عليها نظام الوجود وبيّنتها الشرائع والرِّسالات، وهذا ما تؤكِّده النصوص القرآنية التالية : **(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ**

---

[74] أبو يعرب المرزوقي : الروحانية الاستخلافية ، إسلامية المعرفة، العدد "13" ، ص106. لمعرفة أطروحات الحلولية في الحضارة الغربية أنظر:

- المرزوقي: أبو يعرب: الدليل الوجودى الحلولى أو شروط التحرر من الأفلاطونية المحدثة الجرمانية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 11، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ماليزيا شتاء 1998م .
- المرزوقي: أبو يعرب: الروحانية الاستخلافية، خصائصها وشروطها، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 13، صيف 1998م، ص68-106.
- المسيري: عبد الوهاب: الحلولية والتوحيد والعلمنة الشاملة، مجلة التجديد، العدد الثانى، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، يوليو 1997م، ص9-27 .

[75] الغرب... إنّه فريد ولكنه ليس كلياً جامعاً ، ترجمة فاضل جتكر ، أوربا والعرب ، سوريا ، العددان 166-167 ، مايو - يونيو 1997م ص55 ، عن مجلة فورين أفيرز ، العدد 75-6، تشرين الثاني / كانون الأول 1996م.

[76] نفس المكان.

[77] زكي الميلاد (محرر) تعارف الحضارات ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق 2006، ص179 وراجع مجموعة المقالات للتوسع في الموضوع.

فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (سورة البقرة ، آية 213.).(**وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم**) (سورة المائدة ، آية 48.)(**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**) (سورة هود ، آيات 118-119)(**وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**)(سورة الشورى ، آية 8)

وإذا كان الاختلاف بين النّاس مبدأ تكويني فإنّ هذا يؤدي إلى تعدّد الحضارات وخصوصيتها وعدم تماثلها ، لكن في ذات الوقت يوجد بينها نوع من التشابه والقواسم المشتركة التي تؤدي إلى انفتاحها على بعضها البعض وعدم تعاديها[78]. هذا الانفتاح هو ما يعرف بالمثاقفة"Aculturation" أو التثاقف الحضاري حيث تسعى كل حضارة إلى التفاعل مع غيرها من الحضارات من أجل تطوير ذاتها.

ثانياً: إنّ التّعارف هو المبدأ الذي ينبغي أن تتأسّس عليه العلاقات بين والأمم وهو ما أكده النص القرآني التالي: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**) (سورة الحجرات الآية 13) ، ذلك أنّ التعارف هو أحد أرقى المفاهيم وأكثرها قيمة وفاعلية ، ومن أشدّ وأهم ما تحتاج إليه الأمم والحضارات . وهو دعوة لأن تكتشف وتتعرّف كل أمة وكل حضارة على الأمم والحضارات الأخرى بلا سيطرة أو هيمنة أو إقصاء أو تدمير . والتعارف هو الذي يحقّق وجود الآخر ولا يلغيه ويؤسّس العلاقة والشراكة والتواصل معه لا أن يقطعها أو يمنعها أو يقاومها ... فقد ربط ذلك بوحدة الأصل (**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى**) وبقاعدة التنوع الإنساني (**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ**) وأكرمية التقوى (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) [79] ، فمعيار الأفضلية هو التقوى أي البعد الإيماني بينما يجعل النموذج الدنيوي معيار الأفضلية والتّفوق للعنصر أو الجنس أو الطبقة.

ثالثاً: إذا كان معيار التفاضل بين النّاس هو التقوى فإنّ الحضارة الجديرة بالهيمنة هي تلك الحضارة التي تحمل قيم الحق والخير للإنسانية جمعاء لا لمجموعة بشرية محدودة. وهذه القيم ينبغي أن تتسم بخاصية الشمول والوسطية والمعيارية والرحمة. ولقد تجسّدت هذه القيم في الخطاب الإسلامي إذ أن القرآن الكريم قد أنزل(**تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ**) (سورة النحل ، آية 89) ، وشمولية تلك القيم تحتوي على عناصر الإجابة عن التساؤلات المطروحة في سياق المتغيرات العالمية. ومهما يكن من أمر فإنّ الموقف القرآني من العالم " لا يقوم على خصومة أو عداوة أو حتى تكفير ولكنه يقوم بمنطق المودة والتصالح والتعاون على البر والهداية، ومن ثمّ فالمشكلة الحقيقية ليست في موقف المسلمين تجاه غيرهم ولكنها

---

[78] محمد إبراهيم مبروك : الإسلام والعولمة ، الدار القومية العربية ، القاهرة 1999م ص118

[79] الميلاد : الفكر الإسلامي وقضايا العولمة ، ص18- 19.

في سلوك الغير إزاء المسلمين ذلك أنّ الموقف النظري والمبدئي للمسلمين يواجه الواقع العملي بتحديات تصيب علاقتهم بالآخرين بدرجات متفاوتة من التوتر والتعقيد"[80].

إنّ القرآن الكريم – باعتباره حامل الرؤية الكلية للعالم - قد استوعب ميراث النبوات السابقة بمنطق الهيمنة والحاكمية والتصحيح. وفي اعتراف الإسلام بالنبوات السابقة انفتاح للإسلام على بقية الثقافات والحضارات ؛ فالقرآن الكريم لم يلغ الآخر بل دعا إلى محاورته ومدافعته بالأسلوب الذي يرتضيه الآخر فتشكيل واقع العالم في منظور القرآن يتم من خلال الحوار الحضاري والمثاقفة والمدافعة التي تهدف إلى المحافظة على عمارة الكون. " وإنّ عالمية تستند إلى التعارف والاعتراف بالاختلاف والتنوع والحوار وحقيقة الإقناع لتعبِّر بذلك عن رؤية تأسيسية للعالم يحتل فيها الآخر مساحة مهمة لا تقوم على تصنيفه المؤبّد في دائرة العدو إلا إذا اعتبر هو – أي الآخر- أنّ ذلك خياره في أن يكون عدواً .. عالمية الاستخلاف تقوم بالأساس على مراعاة حق الغير"[81] ، فعالمية الإسلام لا تعني هيمنة الجزء الداعي على الكل المدعو وإنما تعني توحيد كافة الأجزاء ودمجها في كلية جامعة ومن هنا ينبثق مفهوم الأمة الوسط لا كتميز عن الشرق والغرب ولكن كإلغاء لثنائية الشرق والغرب بإعادة تركيب الحضارات والثقافات ضمن وحدة جامعة وليس في هذا نفى أو هيمنة على خصائص الغير الحضارية[82] . بينما النموذج المعرفي الغربي المهيمن على العالم يسير وفق مقولات خطاب حصري أو دنيوي يهدف إلى الهيمنة على الشعوب وحضاراتها دون وضع اعتبار لخصوصية الثقافات والحضارات ومن ثم فقد تولّد عن هذا العنف والصراع كطريق وحيد لفرض إرادة القوة أو مقاومتها.

الخاتمة :-

أولاً: إنّ من الخطأ البيّن محاولة تفسير الحضارة بأنها المدنية أو الرقي والتقدُّم[83]، ومن ثم يتم تغييب النسق العَقَدي الذي يحدِّد طبيعة العلاقة مع الله والغيب والكون والإنسان. ولعل مصدر الخلاف الأساس في مفهوم الحضارة بين النموذجين الإسلامي والوضعي العلماني "يقوم على تفسير التقدُّم، فالنموذج العلماني يرى التقدُّم مادياً خالصاً بينما يرى الإسلام أنّ التقدم معنوي ومادي وأنه إنساني أصلاً وتوحيدي أساساً فكل تقدُّم في مفهوم الإسلام يحث على التحرّر من عبودية غير الله"[84].وهذه النقطة تقود إلى نقطتين هما:

أ- إنّ هناك حضارات قامت على أساس استبعاد الله والبعد الغيبي وتعاملت مع عالم الشهادة واقتصر علمها وقوانينها وتمثلاتها للوجود على المفاهيم الوضعية القائمة على الصراع (**يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**) (سورة الروم آية:7)، هذه الحضارة مآلها أن تحمل بذور فنائها من داخلها بحكم تناقضها مع النظام الكوني القائم على

---

[80] فهمي هويدي: النظام العالمي الجديد والوحدة الإسلامية، ضمن أبحاث ووقائع اللقاء السابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ص593.

[81] سيف الدين عبد الفتاح : مدخل القيم، إطار مراجعة لدراسة العلاقات الدولية ، مصدر سابق ، ص393.

[82] أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية ، ج1، ص381-382.

[83] لمعرفة إشكالية التقدم وكذلك رؤية جيل التنويريين العرب للتقدم، أنظر: جدعان: فهمى: أسس التقدم عند مفكرى الإسلام، ط3، دار الشروق، عمان، الأردن1988م .

[84] العش: يوسف: روح الحضارة الإسلامية، نقلاً عن الجندى: أخطاء المنهج الغربى الوافد، دار الكتاب اللبنانى، بيروت 1982م، ص239 .

الحق فتكون الأزمات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وتكون الحروب وكافة أشكال إهلاك الحرث والنسل[85].

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(سورة الروم آيات 7 - 11)

ب- كما أنّ هناك حضارات دينية قامت في أصل نشأتها على أساس ديني ، وظلت في تطورها التأريخي في ضعفها وقوتها مرتبطة ارتباطاً جدلياً بمدى التزامها وابتعادها عن التوجيه الديني وحضوره أو غيابه داخل المؤسَّسات الاجتماعية فكل حضارة لها منطقها الخاص[86]. ومعنى هذا أنّ الحضارات الدينية تجعل من الدين مصدراً أساسيا للمعرفة وتتعامل مع عالمي الغيب والشهادة والجمع بينهما .

ثانياً: إنّ الحضارة المعاصرة الـ "Civilization" التي تمثِّل المركز حضارة مادية تتعامل مع المحسوس ومن ثم فلا ينبغي أن تكون أنموذجاً تحتذي به بقية الحضارات ذلك لأنها لا تلائمنا فقد أنشئت دون معرفة بطبيعتنا الحقيقية إذ إنها تولَّدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنّها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا "[87].

ثالثا: على الرغم من أنّ الحضارة المعاصرة تعيش مأزق تعاملها مع المحسوس واقتصارها على عالم الشهادة وعجزها عن الإجابة عن الأسئلة الكليّة، إلا أن هناك من نظر إلى بقية الإشعاعات اللاهوتية الكامنة فيها فقرّر أنّ الحضارة الغربية باقية وأزلية. وذلك لأنّ كل مادة وكل وقود يتحوَّل إلى إشعاع، أما بقية الحضارات فهي إما مهددة بالزوال والانقراض أو الذوبان في الحضارة الغربية[88].

رابعاً: تطورت نظرية تمجيد الحضارة الغربية لتنتهي على يد فرانسيس فوكوياما إلى إعلان نهاية التاريخ بالانتصار الساحق للنمط الحضاري الغربي ، فبانتصار المعسكر الغربي وسقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة تنتهي التناقضات الأساسية في العالم بانتصار الليبرالية الاقتصادية والسياسية والديمقراطية الليبرالية ومن ثم تعلن الحضارة

---

[85] محمد الحسن بريمة: المعرفة بين النموذج الإسلامي والنموذج العلماني ، دراسة نقدية مقارنة، سلسلة رسائل التأصيل "2"، إدارة تأصيل المعرفة ، وزارة التعليم العالى، الخرطوم 1995 ص40 -41 .

[86] محمد محمد امزيان: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، سلسلة الرسائل الجامعية (4)، ط1، هيرندن، أمريكا 1991، ص306 -307 .

[87] كاريل: الكسيس: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، ص38 .

وانظر إلى هذا المعنى في كتاب : حيدر عبد الكريم الغدير : المسلمون والبديل الحضاري ، ط2 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، أمريكا 1992م.

[88] Toynbee , A:Astudy of History . The Abridged version by D. C. Somervell, Oxford Un., Press , London 1957. P. 254

الغربية هيمنتها على بقية الحضارات[89] .كما أعلن صمويل أنه بنهاية الحرب الباردة يبرز صراع من نوع جديد بين الحضارات هو صدام الحضارات.

خامساً: الرؤية الغربية للعلاقة بين الحضارات تأسست على النزعه الصراعية بينما الإسلام يقوم على فكرة الواحدية والمركزية الحضارية وانحيازه إلى فلسفة التعددية كرؤية كونية ، حيث يرى الإسلام أن هذه التعددية هي السُنة الالهية والقانون الكوني ، والبديل الإسلامي لصراع الحضارات هو تدافع الحضارات، وهذا التدافع هو حراك اجتماعي وثقافي وحضاري أى تنافس وتسابق بين الحضارات ، وهذا التنافس يحافظ على التعدُدية ، والتدافع الحضاري هو سبيل التقدُّم والإصلاح[90]

سادساً: إذا كانت الحضارة تعني الشهادة أو حضور النموذج الذي تكون فيه صبغة الله هي الموجّهة لعمل الإنسان وتكون فيه غاية الحياة مربوطة بالآخرة، وعمارة الأرض - التي هي دائرة التكليف - سعى للإصلاح فيها لا الإفساد، فإنّ الحضارة بهذا المعنى هي الإسلام أو حضارة الإسلام. وهى الحضارة الموعودة بالانتصار في مرحلة الظهور الكلى للدين .

سابعاً: إنّ جوهر حضارة الإسلام الذي قامت عليه مؤسَّساتها وحدَّد امتدادها التاريخي وشكَّل تفاعلها الخارجي وحدّد أهدافها هو التوحيد. وفى ضوء هذا التصور فقط يمكن أن نتحدث عن واقع الأمة الإسلامية وعن ماضيها ومستقبلها. وإن التوحيد هو الذي يعطى الحضارة الإسلامية هويتها وهو الذي يربط بين أجزائها. وهو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويطهرها من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها[91].

ثامناً: ليس التحضر وضعا مجبولاً في فطرة الإنسان وإنما هو وضع كسبي يستحدثه الإنسان بإرادته الحرة وفق عوامل ذاتية وموضوعية تفضي إليه وعلى رأسها عامل الفكرة متمثلة في ذلك التصور الذي يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود وغاية الحياة بالغة في الفعل الحضاري ذروته حينما تكون فكرة دينية الصبغة. فالتُّحضر بما هو جهاد جماعي لإنجاز الترقي المادي والمعنوي ليس في حقيقته إلا جهاداً مدفوعاً بالتصور لحقيقة الوجود وموجهاً بالغاية من الحياة. فهو في مبدئه واطراده محكوم بتلك الغاية وقائم من أجل تحقيقها . ومن ثم فإنّ قوماً لا يملكون تصوراً بيّناً لحقيقة الوجود ولا تصوّراً بيّنا لغاية الحياة لا تنمو حياتهم إلى وضع من التحضر بل يبقون على حال من البداوة أو ما هو شبيه بحال البداوة[92].

---

[89] انظر كتابه : Fukuyama: Francis: The End of History and the last man. New York , The Free Press 1992 وخلاصة الكتاب : The End of History? "Debate, Dialogue, Number 89. 311990, U . S . Infromation Agency, Washington, PP. 8 - 13

[90] انظر مقدمة محمد عمارة في : عطية فتحي الويشي : حوار الحضارات ، إشكالية التصادم وآفاق الحوار، مكتبة المنار الإسلامية ، ط1 ، 2001م ، ص 16 – 18.

[91] د. اسماعيل راجي الفاروقي : جوهر الحضارة الإسلامية ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد 27 ، يوليو – سبتمبر 1981م ، ص 10.

[92] عبد المجيد النجار: الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامى، مجلة التجديد، السنة الأولى، العدد الأول، الجامعة الإسلامية، ماليزيا يناير 1997 "رمضان 1417هـ" ، ص89-90 .

إنّ ما نود أن نختم به هذا البحث هو أنه من الصعب تصوُّر ثقافة مجردة ومحايدة أي لا ترتبط بخلفيات تأريخية أو مذهب عَقَدي أو إيديولوجيا لها فلسفتها في الوجود تقيم عليها تصوراتها. وباعتبار أنّ الثقافة أو الفكرة هي التي ترفد الحضارة بالأفكار فكذلك من الصعب تصور حضارة بدون فلسفةٍ ما في الوجود تقيم عليها تصوراتها . فالحضارة الغربية المعاصرة تنطلق إما من مثالية تجعل من الإنسان مركزاً للكون أو إلهاً. أو من واقعية تؤلِّه المادة وتجعل من اللذة والمنفعة هدفاً وغاية. ولعل مكمن القصور في هذه الحضارة أنها تستمد أنموذجها المعرفي من فكر بشرى قاصر لا يجعل الوحى مصدراً معرفياً لها. وعلى العكس من ذلك فإنّ من أبرز خصائص الحضارة الإسلامية أنها تسترفد الوحي في سيرورتها فهي حضارة تقوم على منهج الحق. وتأسيساً على ما سبق فإن رؤية العالم حاضرة في دراسة الحضارات.

المراجع

1. إسماعيل : سيف الدين عبدالفتاح : مدخل القيم ، إطار مراجعة لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام ، الجزء الثاني ، مشروع العلاقات الدولية بإشراف نادية محمود مصطفى ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة 1999م .
2. إشبنجلر : أزوالد : تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة أحمد الشيباني ، دار ومكتبة الحياة ، بيروت 1964م
3. أمين : عثمان : الجوانية ، أصول عقيدة وفلسفة ثورة ، دار القلم ، القاهرة 1964م.
4. أميني: محمد تقي: النظام الإلهي للرقي والانحطاط، الطبعة الأولى، ترجمة الدكتور مقتدي حسن الأزهري، مراجعة عبدالحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة 1988م.
5. أنجلز : فردريك : التفسير الآشتراكي للتاريخ ، ترجمة راشد البراوي ، ط2 ، دار النهضة العربية ، القاهرة 1968م.
6. البطاينة : محمد ضيف الله الحضارة الإسلامية ، ط1 ، دار الفرقان ، الأردن 2002م.
7. بيجوفيتش : علي عزت : الإسلام بين الشرق والغرب ، الطبعة الأولى ، منشورات مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام ، ألمانيا ، يناير 1994م.
8. الترابي : حسن : الإيمان أثره في حياة الإنسان ، الطبعة الثانية ، منشورات العصر الحديث، بيروت 1984م.
9. جارودي: روجيه: وعود الإسلام، ترجمة مهدي زغيب، الدار العالمية بيروت 1984م.
10. حاج حمد: محمد أبوالقاسم: العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، مجلدين ، الطبعة الثانية، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت 1996م.
11. حسين : محمد محمد: الإسلام والحضارة الغربية ، الطبعة الأولي ، دار الإرشاد ، بيروت 1969م .
12. خليل : عماد الدين:
    - التفسير الإسلامي للتاريخ ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، "بدون تاريخ" .
    - حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، الطبعة الأولي ، سلسلة كتاب الأمة (4) رئاسة المحاكم الشرعية ، قطر ، رمضان 1403هـ .وطبعة المعهد العالمي للفكر الاسلامي
13. خليل : محمد رشاد: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره ، الطبعة الأولى ، دار المنار ، القاهرة 1984م .
14. الخوري : منح: التاريخ الحضاري عند توينبي ، ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1960.
15. ديورانت : وول : قصة الحضارة ، الجزء الاول ، ترجمة زكي نجيب محمود ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1956 .
16. سعيد : جودت:
    - حتي يغيروا ما بأنفسهم، الطبعة السادسة، دار الثقافة للجميع، دمشق 1984
17. سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ، دار الشروق ، بيروت ، 1995م.
18. الصدر : محمد باقر: اخترنا لك "مجموعة بحوث "، الطبعة الأولى ، دار الزهراء، بيروت 1975م.

19. صديقي : عبد الحميد : تفسير التاريخ ، ترجمة كاظم جوادي ، الدار الكويتية للطباعة والنشر.

20. صبحي : أحمد محمود :

- فلسفة الحضارة ، سلسلة كتابك ، القاهرة 1977م .

21. عارف : نصر محمد:

- الحضارة ، الثقافة ، المدنية ، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة المفاهيم والمصطلحات ، هيرندن ، فرجينيا 1994م .

- نظريات التنمية السياسية المعاصرة ، دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي ، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسبلة الرسائل الجامعية "6" هيرندن ، فرجينيا 1992م

22. عرجون : محمد الصادق : سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ، الطبعة الأولى، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة 1984م .

23. العلواني : طه جابر:

- أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة ، الطبعة الثانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة المحاضرات "2" ، القاهرة 1997م.

- المسلمون والبديل الحضاري ، الطبعة الثانية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، هيرندن، فرجينيا 1992 م.

24. الفاروقي : إسماعيل راجي ولوس ليمياء : أطلس الحضارة الإسلامية ، ط1 ، ترجمة عبد الوحد لؤلؤة ، مطبعة العبيطان ، الرياض 1998م.

25. أبو الفضل : منى عبدالمنعم: الأمة القطب ، نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام ، الطبعة الأولى ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، 1996م .

26. فوكوياما : فرانسيس : نهاية التاريخ ، ترجمة وتعليق الدكتور حسين الشيخ ، الطبعة الأولى ، دار العلوم العربية ، بيروت 1993م .

27. القديدي : أحمد : الإسلام وصراع الحضارات ، سلسلة كتاب الأمة (44)، رئاسة المحاكم الشرعية ، قطر ذو الحجة ، 1415هـ / مايو 1995م .

28. كاريل : الكسيس : الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة شفيق أسعد فريد ، مكتبة المعارف، بيروت .

29. الكيلاني : ماجد عرسان :

- أهداف التربية الإسلامية ، في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية ، الطبعة الثانية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة إسلامية المعرفة (20) ، هيرندن ، فرجينيا 1997م .

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح ، سلسلة كتاب الأمة "29" ، رئاسة المحاكم الشرعية ، قطر "بدون تاريخ" .

30. ابن مبارك : برغوث عبدالعزيز : المنهج النبوي والتغيير الحضاري ، سلسلة كتاب الأمة "43" ، رئاسة المحاكم الشرعية ، قطر ، رمضان ، 1415هـ / فبراير 1995م.

31. المبارك : محمد :

- الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ، الطبعة الثانية ، دار الفكر، بيروت 1970م
- نظام الإسلام ، العقيدة والعبادة ، دار الفكر دمشق ، 1981م .

32. مبروك : محمد إبراهيم "وآخرون" : الإسلام والعولمة ، الدار القومية العربية ، القاهرة 1999م .

33. منير شفيق :

- الإسلام في معركة الحضارة ، الطبعة الثانية ، دار الكلمة ، بيروت ، 1983م .
- في نظريات التغيير ، الطبعة الأولى ، الناشر للطباعة والنشر ، بيروت 1994م

34. المودودي : أبو الأعلى :

- الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها ، ترجمة محمد عاصم الحداد ، دار العربية، بيروت "بدون تاريخ" .
- مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م .

35. مؤنس : حسين: الحضارة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون ، سلسلة عالم المعرفة "1" ، الكويت ، يناير 1978م .

36. ابن نبي : مالك :

- آفاق جزائرية ، الطبعة الثانية ، مكتبة عمار ، القاهرة 1971م .
- تأملات ، الطبعة الخامسة ، دار الفكر ، دمشق 1991م .
- شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، دمشق 1969م .
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة الدكتور بسام بركة والدكتور أحمد شعبو ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، دمشق 1988م .
- مشكلة الثقافة، ترجمة عبدالصبور شاهين ، الطبعة الرابعة ، دار الفكر ، دمشق 1984م.
- ميلاد مجتمع ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، دمشق 1977م .
- وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبدالصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق 1981م

37. النجار : عبدالمجيد :

-الإنسان والكون في التربية القرآنية ، النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، العدد الثاني ، تونس ، 1406هـ / 1985م

- الشهود الحضاري للأمة الإسلامية ، المبادي والعوامل والمشاريع ، مسودة كتاب ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، أمريكا.

38. هوفمان : مراد : الإسلام كبديل ، ترجمة الدكتور غريب محمد غريب ، الطبعة الأولي ، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام إلمانيا ، شوال 1413هـ / أبريل 1993م

39. هنتنجتون صمويل : صدام الحضارات ، ترجمة طلعت الشايب ، ط2 ، سطور ، القاهرة 1999م.

40. هيشور : محمد : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، الطبعة الأولي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية "30" ، القاهرة 1996م

ثالثاً : الدوريات :

1- خليل : عماد الدين: حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية ، مجلة التجديد ، ع(8) ، الجامعة الإسلامية ، كوالا لمبور .

2- الربيعو: تركي علي: الإسلام الحضاري وتغيير النظام العالمي "مالك بن نبي وأنور عبدالملك، مجلة منبر الحوار، السنة الثامنة، العدد (28)، دار الكوثر، بيروت، ربيع 1993م .

3- شريعتي : علي: المدنية والحضارة ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد "33" ، مؤسسة المسلم المعاصر، بيروت ، محرم - ربيع الأول 1403هـ / نوفمبر - يناير 1983م.

4- شيخ إدريس : جعفر : في منهج العمل الإسلامي ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد "13" ، مؤسسة المسلم المعاصر، بيروت ، يناير - مارس 1978م .

5- صوالحي : يونس : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها للأستاذ محمد هيشور، مراجعة كتاب ، مجلة إسلامية المعرفة ، العدد "13" ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ماليزيا .

6- العلواني : طه جابر : آفاق التغيير ومنطلقاته، الأزمة الفكرية ومناهج التغيير في الواقع العربي، مجلة الإجتهاد، السنة السادسة، العدد "24"، دار الاجتهاد، بيروت، صيف 1415هـ 1994م .

7- فتاح : عرفان عبدالحميد:

- إسلامية المعرفة ومنهجية التثاقف الحضاري مع الغرب ، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الثانية، العدد الخامس ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ماليزيا ، صفر 1417هـ / يوليو 1996م .

- المرتكزات الأساسية التي حفظت للأمة وحدتها ، مجلة التجديد ، السنة الأولي ، العدد الثاني ، الجامعة الإسلامية العالمية ، ماليزيا ، ربيع الأول ، 1418هـ ، يوليو 1997م.

8-المرزوقي : أبويعرب : - الدليل الوجودي الحلولي أو شروط التحرر من الإفلاطونية المحدثة الجرمانية، مجلة إسلامية المعرفة ، السنة الثالثة ، العدد "11" ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ماليزيا ، شتاء 1418هـ / 1998م 290.

- الرّوحانية الاستخلافية ، خصائصها وشروطها ، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الرابعة، العدد "13" ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ماليزيا ، صيف 1419هـ / 1998م .

9- المسيري : عبدالوهاب: الحلولية والتوحيد والعلمنة الشاملة ، حالة اليهودية ، أطروحة ماكس فيبر وبيتر برجر، مجلة التجديد ، السنة الأولي ، العدد الثاني ، الجامعة الإسلامية العالمية ، ماليزيا ، ربيع الأول 1418هـ / يوليو 1997م .

10- النجار : عبدالمجيد :

- الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي ، مجلة التجديد ، السنة الأولى ، العدد الأول ، الجامعة الإسلامية العالمية ، ماليزيا ، رمضان 1416هـ / يناير 1997م

- الإيمان والعمران ، مجلة إسلامية المعرفة ، السنة الثانية ، العدد الثامن ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ماليزيا ، ذو الحجة 1417هـ / ابريل 1997م .

- دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية ، مجلة إسلامية المعرفة ، السنة الأولى ، العدد الأول ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ماليزيا ، المحرم 1416هـ يونيو 1995م.

المراجع الأجنبية:

1. Books :

2. Al-Attas : Sayed Muhammad Al-Naguib : Islam and Secularism, Muslim Youth of Malaysia, Kualalambur, First Impression.

3. Al Faruqi : Ismail Raji : Tawhid, Its Relevance For Thought and Life, I.I.F.S.O., First Edition, Kuwait 1982.

4. Corn Ford : F.H., : From Religion To Philosphy, Harper and Row, New York 1957.

5. Epstin : Isoder : Judaism, Penguin Books 1990.

6. Fukuyama : Francis : The End of History and The Last Man, The Free Press, New York 1992.

7. Irving M., : Zeitlin : Jesus and the Judaism of his time, Polity Press, Cambridge 1988.

8. Rozak : Theodore : Where the Wasteland Ends?, Doubleday and Co. INC, New York 1972. Publishers, New York 1973.

9. Spengler : Oswald : The Decline of The West, Translate by Charles F. Athinson, Vol.1., New York 1946.

10. Toynbee. A., : A study of History, The Abridged version, by D.C. Somervell, Oxford University Press, London 1957.

11. Unterman : Alan : Jews, Their Religious Belief and Practies, Rotledge, London, New York 1989.

2. Periodical :

1.Fukuyama : Francis : The "End of History?" Debate, Dialogue, Number 89, 311990, U.S. Information Agency, Washington.

2. Huntington Samuel : The Clash of Civilization, Foreign Affaris, U.S.A., Summer 1993.

_____: If not Civilization, What? Paradigms of the Post - Cold War World, Foreign Affairs, November - December 1993.

18. Sherbok : Dan Cohen : The Jewish Faith, Spek 1993.